مظاهر التأثير الحضارى المتبادل بين بعض مدن البحر المتوسط فى بعض العادات والتقاليد الليبية القديمة

بحث مقدم من

الدكتور

إبراهيم حسين محمد

بسم الله الرحمن الرحيم

مما لا شك فيه أن طبيعة الموقع الجغرافي لأى دولة من دول العالم يكون لـه تـأثيرا مباشرا فى تحديد السمات الحضارية للدولة والتى تتكون كنتيجة طبيعـية للتأثير المتبادل مـع الدول المجاورة لها والمتعاملة معها فى مختلف المجالات. ولذلك سأحاول أن أوضح من خلال هذا البحث بعض مظاهر التأثير الحضارى المتبادل لبعض مدن البحر المتوسط علـى بعـض العادات والتقاليد الليبية القديمة، وذلك من خلال الدراسة التاريخية والأثريـة للنقـاط البحـث الآتية:

- مدى تأثـر صناعة الأرواب الليبية وزخرفتها بحضارات المدن القريبة منها.
- الأصل التاريخى لعادة استخدام الواقى الذكرى (الجراب) عند القبائل الليبية.
- أنواع أحزمة الوسط وطرق زخرفتها وربطها.
- أصل وأنواع حافظة القدم (الخُف) التى تستخدمها القبائل الليبية.

وقد إعتمدت فى دراسة كل نقطة من نقاط البحث السالفة الذكر على محاولة التعـرف على الجزور الأولى لاستخدام تلك الأرواب الليبيـة وأنواعـها وكذلـك إبـراز المؤثـرات الخارجية التى ظهرت فى اساليب زخرفة تلك الأرواب.

أما عن النقطة الثانية من البحث فتهـدف إلى ابراز أقدم استخدام الواقى الذكرى عنـد القبائل الليبية (الجراب) ثم التعرف على مراحل تطور صناعتـه وزخرفتـه عـبر العصـور التاريخية. بينما أوضحت فى النقطة التالية بعض أنواع أحزمة الوسط التى تستخدمها القبـائل الليبية وكذلك أساليب زخرفتها وطرق ربطها حول الوسط. ثم خصصت النقطة الأخيرة مـن البحث لتوضيح بعض أنواع حافظة القدم (الخـف) التى تستخدمها القبـائل الليبيـة وطـرق صناعتها وزخرفتها. وعلى أى حال فإن جميع نقاط هذا البحث تؤكد وتوضح إلى أى حد كـان للتبادل الحضارى بين بعض مدن البحر المتوسط تأثيرا واضحا على بعض العادات والتقـاليد الليبية وذلك على النحو التالى:

أولاً : مدى تأثر صناعة الأرواب الليبية وزخرفتها بحضارات بعض المدن المقربة منها:

ترجع أقدم مراحل استخدام الستر إلى عصور ما قبل التاريخ حيث عثر على مجموعة من التماثيل العاجية فى موقع (هيراكونوبولس) الكوم الأحمر بمدينة إدفو حيث تصور تلك التماثيل بعض النساء وهن يرتدين السترة التى تمتد من الوسط إلى نهاية القدم(Kilt) وثبتت حول الوسط بواسطة حزام، كما وجد نموذجا أخر من العاج يصور إمرأة وهى ترتدى عباءة تميزت بوجود طرف لتثبيتها حول الوسط بحيث بدت قريبة الشبه من البالطو[1]. انظر شكل رقم (١١).

وعلى هذا الأساس فإن الجذور الأولى لصناعة الستر والأرواب الليبية التى أظهرتها بعض التصاوير على بعض جدران المقابر والمعابد المصرية فهى بدون شك كانت من نتاج ذلك التأثير المتبادل بين كل من الحضارتين المصرية والليبية. كما ساهم فى تدعيمه الأمتداد الجغرافى الطبيعى بين البلدين وسهولة الاتصال بينهما سواء كان ذلك عن طريق البر أو البحر.

أما عن السترة الليبية Kilt فكانت من أبسط نماذج الملابس التى ترتديها الغالبية العظمى من القبائل الليبية، وهى عبارة عن رداء يمتد من وسط الجسم إلى أسفل الركبة وقد ظهرت أقدم تصويره لتلك الأنواع من الستر على بعض التماثيل العاجية التى عثر عليها فى (هيراكونوبولس) الكوم الأحمر.[2] . انظر شكل (١) ب.

كما وجدت تصويره فى معبد مدينة هابو ترجع إلى الأسرة العشرين تتضمن مجموعة من الأفراد الليبيين يرتدى أرواب جلدية، وتبدو أنها صنعت من جلود الأسود وهى تنتمى إلى تلك الأنواع البسيطة من الستر التى تمتد من الوسط إلى أسفل الركبة، ومن نماذج المشرح لسابقة على ذلك فى صناعة الستر عثر أظهرت تصويره ترجع إلى عصر الملك تحوتمس الرابع. وكو نوعا جديدا من الستر حيث تم عمل فتحة بها من الأمام ثم ثبت عليها عند منتصف الوسط الواقى الذكرى وبالأضافة إلى ذلك فقد أظهرت أيضا بعض تصاوير الدولة

---

(1) Quibell, B.A.; Hierakonopolis, I. London, 1900, PL. IX, P.6.

(2) Quibell, B.A.; Ibid, PL. VII.

الحديثة نموذجا لروب طويل كانت ترتديه الغالبية العظمى بين الليبيين فى أول الأمر ثم أصبح يستخدم بشكل أكثر إنتشارا من الطراز القديم الذى عرف باسم سترة الوسط[1]. أنظر شكل رقم (٢).

وعلى أى حال فإن معظم الوثائق الأثرية تشير بوضوح إلى أن ذلك الطراز من الأرواب الطويلة كان ارتدائه يعتبر علامة مميزة تدل على العظمة والمستوى الاجتماعى الرفيع لكل من يرتديه، كما أن ذلك الطراز كان يشبه تلك الأنواع من الأرواب الطويلة التى توضع على الكتفين وتثبت بمشابك مذهبة. ومن المحتمل أن تكون تلك الأرواب كانت بمثابة هدايا تقدم من الحكومة البيزنطية إلى أمراء ومشايخ القبائل الليبية عند قدومهم لدفع الجزية السنوية إلى الحكومة البيزنطية.

وعن مواصفات ذلك الروب الليبى فقد أوضح (سترابو) بأنه رداء فضفاض وله أطراف عريضة[2].

وقد أظهرت بعض النقوش المصرية أن الأرواب الليبية كانت عبارة عن سترة بدون أكمام وتصنع من الجلد[3].

أما عن نماذج الأرواب المصنوعة من النسيج فقد ظهرت كقطعة طويلة يميل شكلها العام إلى الشكل المستطيل، ولكن أهم ما تميزت به تلك الأرواب أن الجزء العلوى منها أعرض من الجزء السفلى ويتم تثبيته بإلتفافه حول الأكتاف، وفى معظم الأحيان كانت تعقد الحمالة التى توجد عند الطرف العلوى من الروب بحيث تبدو فى شكل متقاطع على الصدر وأن تلك النماذج كانت تشبه تلك الأنواع من الأرواب المصنوعة من الجلد[4].

بالإضافة إلى ذلك فقد أظهرت تصويره على جدار مقبرة "الملك سيتى الأول" نماذج أخرى من الأرواب الليبية تميزت بوجود أكمام ويبدو أنها ثبتت فوق أحد الكتفين بواسطة مشبك، كما يبدو الشكل العام لتلك الأرواب أنها كانت تصنع بطريقة منتظمة من أعلى إلى

---

(1) Bates. O.; The Eastern Lybian, London, 1914, p.119, (Frontispiece); Fig. 31.

(2) Strabo, XVII, P.828.

(3) Bates, O., Op Cit. (Frontispiece).

(4) Bates. O., Ibid, P 119, Fig 10, PL IV

أسفل ولذلك فان حزام السترة كان يثبت من الداخل، وتميزت تلك النماذج من الأرواب عن غيرها بانها كانت تزين ببعض التصميمات الملونة وذلك عن طريق وضع قطع من القماش فوق الثوب وذلك عن طريق الحياكة وكانت تتركز تلك القطع من القماش عند أطراف الثوب[1]. أنظر شكل (٣).

ومن الأساليب الأخرى التى استخدمت فى زخرفة الأرواب الليبية فقد تمثلت فى وضع قطع من القماش عند وسط الثوب. كما ظهرت بعض الأشكال المتقاطعة فوق بعض الأرواب[2].

ويلاحظ أن الصديرى (tunic) كان من أكثر الأنواع شعبية وإنتشارا عند القبائل الليبية، ولعل ما يوضح ذلك هى تلك التصويرة لاثنان من القادة الليبيين وتوجد فى متحف constantinop Le حيث توضح هذه اللوحة نموذجا آخرا (لصديرى) مزود بأكمام، وكذلك زود بحزام ثبت عند الوسط[3]. أنظر شكل (٤).

أما عن المواد الخام التى كانت تصنع منها تلك الأرواب فقد ظهرت منها بعض الأنواع عالية الجودة خاصة فى الجهة الشمالية الشرقية من ليبيا ولعل ذلك يرجع إلى وجود نوعا من التبادل التجارى بين المدن المحيطة بالجهة الشرقية من ليبيا منذ منتصف القرن السادس عشر ق.م[4].

ومن المحتمل أن تكون الطريقة التى استخدمت فى صناعة المنسوجات الليبية قد تأثرت بصناعة المنسوجات المصرية القديمة ولعل ما يرجح ذلك هو أن مواد صناعة المنسوجات الليبية كانت تجلب من المدن القريبة من ليبيا وخاصة من الجهة الشرقية منها، ولن ما يدعم ذلك أيضا هى تلك الأدلة الأثرية من قطع المنسوجات الكتانية التى عثر عليها فى موقع البدارى فى مصر وترجع إلى عصور ما قبل الأسرات[5].

---

(1) Bates, O; Ibid, PL.III.

(2) Champollion, F.d.; Monuments de l'Egypte, Vol 1, PL 17

(3) Bates. O.; Op.Cit., P 120, Fig. 13

(4) MacIver, & Wilkin , Libyan Notes, P 69 n

(5) Brunton, G & Caton, thampson. The Badarian Civilization, London, 1928, P 62

أصـــل أســـاليب زخرفة المنســـوجات الليبية:

وحول تحديد المصدر الذى تأثرت به طرق زخرفة المنسوجات الليبيـــة فقـــد وجـــدت بعض الآراء التى حاولت إرجاع تلك الطرق من الزخرفة بأنها أحدى المؤثرات الخارجيـة وأن مصدرها جزيرة (سردينا – Sherden). ويستند أصحاب هذا الرأى فى تفسيراتهم لذلك إلـــى أن القادة الليبيين كانوا يحصلون على أسلحتهم المعدنية من سردينا[1].

ويوضحون ذلك التأثير الحضارى المتبادل بين كل من سردينا وليبيا من خـــلال عقـــد مقارنة بين أصل الخطوط التى استخدمت فى زخارف المنسوجات الليبية وبين أشكال الخطـوط التى زينت الجدار الخارجى لكسره من النخار (شقافة) عثر عليها فى سردينا. وعند فحص كـل من الأثريين نجد أن خطوط الزخرفة الموجودة على الشقافة الفخارية فهى تمثل مجموعة مـــن الخطوط المائلة فى الصف العلوى تقابلها مجموعة مماثلة فى الصف السفلى بحيث يبدو الشـكل العام لكل من المجموعتين معا (العلوى والسفلى) أنهما يشكلان معا مجموعة من السهام بحيـث ينفصل بين كل مجموعتين (صف علوى وصف سفلى) مجموعة من الدوائر الســـوداء والتـــى يرجح انها ترمز إلى قطع معدنية. أنظر شكل رقم (١٤)[2].

وبمقارنة تلك الخطوط التى زينت جدار الشـــقافة التى عثر عليها فى سردينا نجدهـــا تتشابه إلى حد كبير مع أشكال تلك الخطوط التى استخدمت فى زخرفة المنســـوجات الليبيـــة، حيث نجد أن تصميم الخطوط الزخرفية الليبية تكونت اساسا من ثلاث خطـــوط أفقيـــة عليهـــا مجموعتان من الخطوط المماثلة بحيث يظهر الشكل العام لكل خط من الخطوط الأفقيـــة إنـــها تمثل مجموعة من السهام، ومن أوجه التشابه الكبير أيضـــا بيـــن أســـاليب الزخرفـــة الليبيـــة والسردينية هو وجود تلك العلامات من الدوائر التى يرجح إنها ترمز إلى المعادن قد رســـمت فى صف أفقى أيضا وينفصل بين كل خط أفقى والذى يليه. ولعل تلك المقارنة التى عقدت بيـــن أساليب الزخرفة الليبية والسردينية كان الهدف منها إبراز التأثير الحضارى المتبادل بين بعض مدن البحر المتوسط وبين تلك الجماعات التى تعـيش على السواحل الليبية الشرقية[3].

---

(١) Muller, M.W; Egyptological Researches, Vol. II P.126.

(٢) Bates, O., Op.Cit., Fig. 16.

(٣) Bates, O., Ibid P, 121

وعلى أى حال فمن المحتمل أيضا أن تكون أساليب زخرفة المنسوجات الليبية أنها ترجع فى أصولها إلى الحضارة المصرية القديمة وذلك بحكم الامتداد الجغرافى الطبيعى بين مصر وليبيا، ولعل من الأدلة الأثرية التى تدعم ذلك هى تلك القطعة العاجية التى عثر عليها فى موقع (نقادة Nagada) حيث نلاحظ أن الخطوط التى زينت أحد وجهى تلك القطعة تشبه إلى حد كبير تلك الخطوط التى وجدت على الجدار الخارجى للشقافة التى عثر عليها فى سردينا وكذلك الخطوط التى وجدت على أحد الأرواب النسيجية الليبية، كما نلاحظ أيضا فى تلك القطعة العاجية التى عثر عليها فى موقع نقادة أن الدوائر السوداء التى تفصل بين كل مجموعتين من الخطوط المائلة فى الشقافة التى عثر عليها فى سردينا قد وجدت أيضا مرسومة على القطعة العاجية فى منتصف مجموعتى الخطوط المائلة. أما عن الرسوم التى زينت الوجه الأخر لتلك القطعة العاجية فكانت عبارة عن مجموعة من الدوائر السوداء شغلت معظم مساحة سطح القطعة وهى تشبه إلى حد كبير الدوائر السوداء التى رسمت على شقافة سردينا وفسرت بأنها ترمز إلى المعادن. وبناء على ذلك فإذا كانت بعض الآراء حاولت إرجاع الأصول الزخرفية فى المنسوجات الليبية إلى جزيرة سردينا فمن المحتمل أيضا إرجاع تلك الأصول إلى الحضارة المصرية القديمة وان ما عثر عليه فى نقادة لخير دليل على ذلك. أنظر شكل رقم (٤ ب)[1].

وبالإضافة إلى ذلك فيذكر (سترابو Strabo):

أن معظم جماعات شمال افريقيا كانوا يرتدون عباءات مصنوعة من جلود الأسود كما استخدمت تلك الجلود فى عمل مأوى لهم، عرفت تلك الأنواع من الملابس الجلدية باسم الصديرى[2].

بينما يذكر (ميلا Mela):

ان بعض سكان ليبيا وخاصة فى المناطق الداخلية كانوا يرتدون ملابس صنعت من جلود بعض الحيوانات البرية أو من البيئة المحلية، كما يذكر أن جماعة الـ Macae) كانوا

---

(1) Petrie, F. & quibell, B.A., Nagada and Ballas, London, 1896.PL.LXII-No.24.

(2) Strabo, XVII, p. 828.

يرتدون بعض الأنواع من الصديرى المصنوع من الجلد والتي ارتدتها ايضـــا جماعـــة الـــ (Marmarid)[1].

ووجدت بعض الأنواع الأخرى من الثياب تشبه الجاكت كانت ترتديها جماعـــة الـــ (Inushagh) وهو عبارة عن قميص من الجلد، وان ذلك النوع من الثياب لم يكن شائعا عنـد غالبية القبائل الليبية[2].

وان ذلك الواقى الذكرى (sheath) الذى يستخدم عند الجماع عرف عنـــد الأثريـــن باسم (penistasche) وقد ذكر ذلك أكثر من مرة، وفضلا عن ذلك فإن نمـــاذج مـــن تلـــك الوسائل الوقائية قد استخدمت فى (Minoan crete) [3] كما تستخدمها بعض القبـــائل حتـــى اليوم فى جنوب افريقيا[4].

ثانيا: الأصل التاريخى لاستخدام الواقى الذكرى (penistasche) عند القبائل الليبية:

لقد كان من نتائج التأثير الحضارى المتبادل بين بعض مدن البحر المتوسط وبين تلـــك الجماعات الليبية القديمة وخاصة التى تعيش بالقرب من السواحل الليبية الشـــرقية أن ظـــهرت عادة استخدام الواقى الذكرى عند تلك القبائل. والتى أرجعت أصولها التاريخية إلى الحضـــارة المصرية القديمة ولعل ما يدعم ذلك هى تلك المجموعة من التماثيل العاجية التى عثر عليـــها فى (هيراكونوبوليس) الكوم الأحمر – حيث مثلت تلك المجموعة من التماثيل العاجية بعـــض الاشخاص وهم يعلقون ذلك الواقى الذكرى (الجراب) عن طريق حزام مثبت حول الوسط[5].

ويبدو بشكل واضح أن تلك النماذج من الواقى الذكرى والتى ترجع إلى عصـــور مـــا قبل الأسرات فى مصر تشبه إلى حد كبير تلك النماذج التى وجدت فى بعض تصاوير الأســـرة

---

(1) Bates, O.; Op.Cit., P. 121.

(2) Lyon; F.G.; travel in Northern Africa, p.110

(3) Burrows, M.R.; The Discoveries in Crete, PL. I.

(4) Muller, M.W.; Op.Cit., Vol. II, P 121

(5) Quibell, B.A., Hierakonopolis, London, 1900, PL. VII-VIII

الخامسة والتى اظهرت بعض الأفراد الليبيين وهم يضعون تلك الأجربة الذكرية بواسطة حزام يلتف حول الوسط[1]. أنظر شكل رقم (٥)

ويؤكد العالم (جيمس هنرى وستد) أن اسم الواقى الذكرى ورد ضمن بعض نصوص الدولة الحديثة باسم

K , r , - N – ty

وان هذه الكلمة تعنى بالتحديد:-

[2] Phallus with a Fore skin, fore skin.

وتعد تصاوير مقبرتى ساحو رع Sa-hu-r^{c}

و نى اوسر رع Ne-user-r^{c}

من الأسرة الخامسة من أقدم الأدلة الأثرية التى تظهر بداية استخدام الواقى الذكرى عند الجماعات الليبية[3]. شكل (١) .

ويلاحظ هنا أن الواقى الذكرى الذى وجد فى تصويرة مقبرة الملك نى أوسر رع يشبه إلى حد كبير تلك الأنواع التى عثر عليها فى موقع "هيراكونبوليس" وهى عبارة عن مجموعة من التماثيل العاجية توضح بعض الأفراد وهم يضعون ذلك الواقى الذكرى فى أشكال مختلفة ويبدو أنه مثبت بواسطة حزام يلتف حول الوسط[4].

أما عن طريقة تثبيت الواقى الذكرى فقد أوضحت تصويرة مقبرة (نى أوسر رع) حيث نرى أن الواقى الذكرى كان يمر أسفل الحزام المثبت حول الوسط ثم يتدلى إلى السفل

---

[1] Bates, O.; Op.Cit., Fig. 17,19.

[2] BAR.; III, sec 587 note h,
BAR.; IV, sec 52

[3] Bates, O , Op Cit. P 122, Figs. 17,18

[4] Quibell, B A. Op Cit. Pl VIII

وبدون أن يثبت على الحزام.

ومن المحتمل أن تلك الطريقة التى استخدمت فى تثبيت الواقى الذكرى ظلت شائعة الاستخدام حتى عصر الدولة الحديثة، ولكن على الرغم من ذلك فقد ظهر نوعا جديدا من الواقى الذكرى فى تلك الفترة حيث أظهرت تصويرة ترجع إلى عصر الدولة الحديثة أحدى جماعات المشوش وهى تضع نموذجا جديدا من الواقى الذكرى تميز طرفه السفلى بوجود شكل أشبه بالكرة (دلايه)، كما يبدو أن الواقى الذكرى أصبح جزء من حزام التثبت، بينما أظهرت بعض التصاوير الأخرى أن حلقة تثبيت الواقى الذكرى كانت من أبرز سمات طرق تثبيت تلك الأحزمة[1]. شكل (٧).

وفضلا عن ذلك فقد وجدت مجموعة من التماثيل النوبية المصرية فى معبد الكرنك وترجع إلى عصر الأسرة التاسعة عشر تظهر شكلا جديدا من اشكال الواقى الذكرى حيث يظهر شكله العام مربع الشكل ومثبت فوق الحزام بواسطة عقدة مربعة الشكل ولن ذلك التمثال محفوظ بالمتحف المصرى بالقاهرة. شكل (٨).

ويمكن أرجاع الأصول الأولى لذلك الطراز أيضا إلى الحضارة المصرية القديمة ولعل ما يرجح ذلك هو تمثال من العاج عثر عليه فى (هيراكولوبوليس) صور عليه نموذجا قريب الشبه جدا من ذلك الطراز الذى وجد على التماثيل النوبية المقدسة[2].

ومن المحتمل أن يكون استخدام ذلك الطراز من الواقى الذكرى كان شائع الاستخدام بين القادة وزعماء القبائل النوبية، كما أن تلك الأنواع ذات النهايات المزخرفة لم تظهر فى التصاوير المصرية القديمة حتى وقت وصول المشويش فى عصر الدولة الحديثة.

كما يرجح أن وضع الواقى الذكرى كان علامة تشير إلى بلوغ الشخص ويستند فى ذلك إلى وجود بعض الصبية عراه (بدون الواقى الذكرى) وذلك ضمن نقوش معبد سا حو رع الأسرة الخامسة[3].

---

(1) Bates, O; Op.Cit., Fig. 21

(2) Bates, O , Op.Cit., P 125.

(3) Bates, O , Ibid, P 125, PL, VII

أما عن المواد الخام التى صنع منها الواقى الذكرى فلم تعرف بالتحديد لأن استخدام الجلود عثر على ما يؤكد استخدامه منذ أقدم العصور فى مصر. بينما استخدمت النباتات العشبية والاخشاب فى بعض مناطق جنوب افريقيا، ولكن تظهر بعض نماذج من الواقى الذكرى الذى استخدمته بعض الجماعات الليبية انه كان يصنع من بعض المواد المرنة، كما يلاحظ أن بعض تلك النماذج كانت تزين بخطوط طولية بالوان حمراء وزرقاء وبيضاء[1].

ثالثا: انواع أحزمة الوسط وطرق زخرفتها وربطها:

لقد أظهرت بعض نقوش المقابر المصرية التى ترجع إلى عصر الدولة القديمة نماذج من تلك الأحزمة الليبية وهى تشبه إلى حد كبير الأنواع التى تعرف فى العصر الحديث باسم Polo Belts، بحيث يبدو الشكل العام لهذه الأحزمة أن الجزء الملامس للظهر، أعرض من الجزء الملابس للبطن، وعن طريقة تثبيت الحزام لتوضح بعض تصاوير مقبرة ساحو رع أن الحزام كان يلتف حول الوسط وأن أحد طرفيه كان يدفع إلى أسفل بين الجسم والحزام ثم يتجه مرة أخرى إلى أعلى ثم يثبت بعمل عقدة لضبطه حول الوسط[2].

ومن المرجح ان كل من الحزام والحلقة كانا يصنعان من قطعة واحدة وفى هذه الحالة لابد من ضبط الواقى الذكرى أولا، أما عن تحديد طول الحزام فكان يوضع فى الاعتبار أنه سوف يمر أسفله بعد التفافه حول الوسط وبعد ذلك توضع الحلقة التى سبق الاشارة إليها.

وبالنسبة للمواد الخام التى صنعت منها الأحزمة فمن المحتمل أنها صنعت من الجلود الملساء وان تلك الأنواع من الأحزمة المزخرفة التى ظهرت ضمن تصاوير مقبرة (ساحو رع) يلاحظ أن الحلقة قد زخرفت أيضا وثبتت فوق الحزام (appendage) حلقة الربط (توكة الحزام)، كما يبدو أن تلك الحلقة صنعت من قطع طولية من الجلد للهلة العرض تصف جنبا إلى جنب. كما يلاحظ أن حافتى الحزام العليا والسفلى أنهما صنعا من قطع أكثر عرضا من تلك القطع الطولية التى تشكل جسم الحزام، كما يرجح أن تكون تلك الحافتين قد صنعتا من العاج أو من مواد أخرى مع ملاحظة أن جميع الأنواع كانت تثبت من الأمام

---

(1) Naville, E.; Figurines égyptiennes de l'epoque archaique, II, Rt, XXII, P.68.

(2) Bares O.,Op.Cit., P 126

بواسطة بعض الأنواع من الدباويس[1].

وعلى أى حال فان المسالة بين الخطوط العرضية فى الأحزمة كانت تغطى ببعض أنواع من لمشور للمحار البحرى والتى ظهرت فى شكل قطاعات من (shell) وهى عبارة عن أنواع من الأصداف البحرية، ولن تلك المواد التى استخدمت كأحد اساليب الزينة أو زخرفة الأحزمة قد عثر على نماذج لها فى بعض مقابر النوبة[2].

رابعا: أصل أنواع حافظة القدم (الخُف) التى استخدمتها القبائل الليبية:

لن معظم التصاوير التى وجدت على جدران بعض المقابر والمعابد المصرية القديمة واشتملت على صور لزعماء أو رؤساء القبائل الليبية قد أظهرتهم فى أغلب الأحيان وأقدامهم عارية، ولكن على الرغم من ذلك فقد وجدت تصويرة لهم فى مدينة هابو توضح أحد الزعماء الليبيين وهو يرتدى (خف). انظر شكل رقم (٩). وبالإضافة إلى ذلك فقد وجدت تصويرة توضح الملك (Meryey) حيث وضع صندله فى حمالة ثبتت خلف ظهره وذلك أثناء خروجه من ملف للقتال[3].

ومن المحتمل أن تلك الأحزمة والصنادل كانت تهدى من الحكومة البيزنطية إلى لمراء وشايخ القبائل الليبية أثناء توجههم لدفع الجزية السنوية لهم[4].

وعلى أى حال فإن ذلك النموذج البسيط من (الخُف) الذى استخدم كغطاء للقدم كان منتشرا بدرجة كبيرة بالإضافة إلى استخدام الصنادل فى ذلك الوقت. وبالإضافة إلى ذلك فإن بعض التصاوير الأخرى التى وجدت على بعض جدران المقابر المصرية أظهرت أحد الليبين وهو يرتدى ذلك النوع من أغطية القدم والمعروف باسم (Leg-wrapping) وهى تشبه إلى حد كبير تلك الأنواع التى يستخدمها أهل جزيرة سردينا حتى اليوم وكانت تصنع من الجلد أو والصوف[5].

---

(1) Dates. O; Ibid. P.126.

(2) Datesm O; Ibid, p.127, Figs 27, 28,29.

(3) B A R; III, Sec, 584.

(4) Corippus, Johannis, II, 137.

(5) Strabo ; XVII, P.831

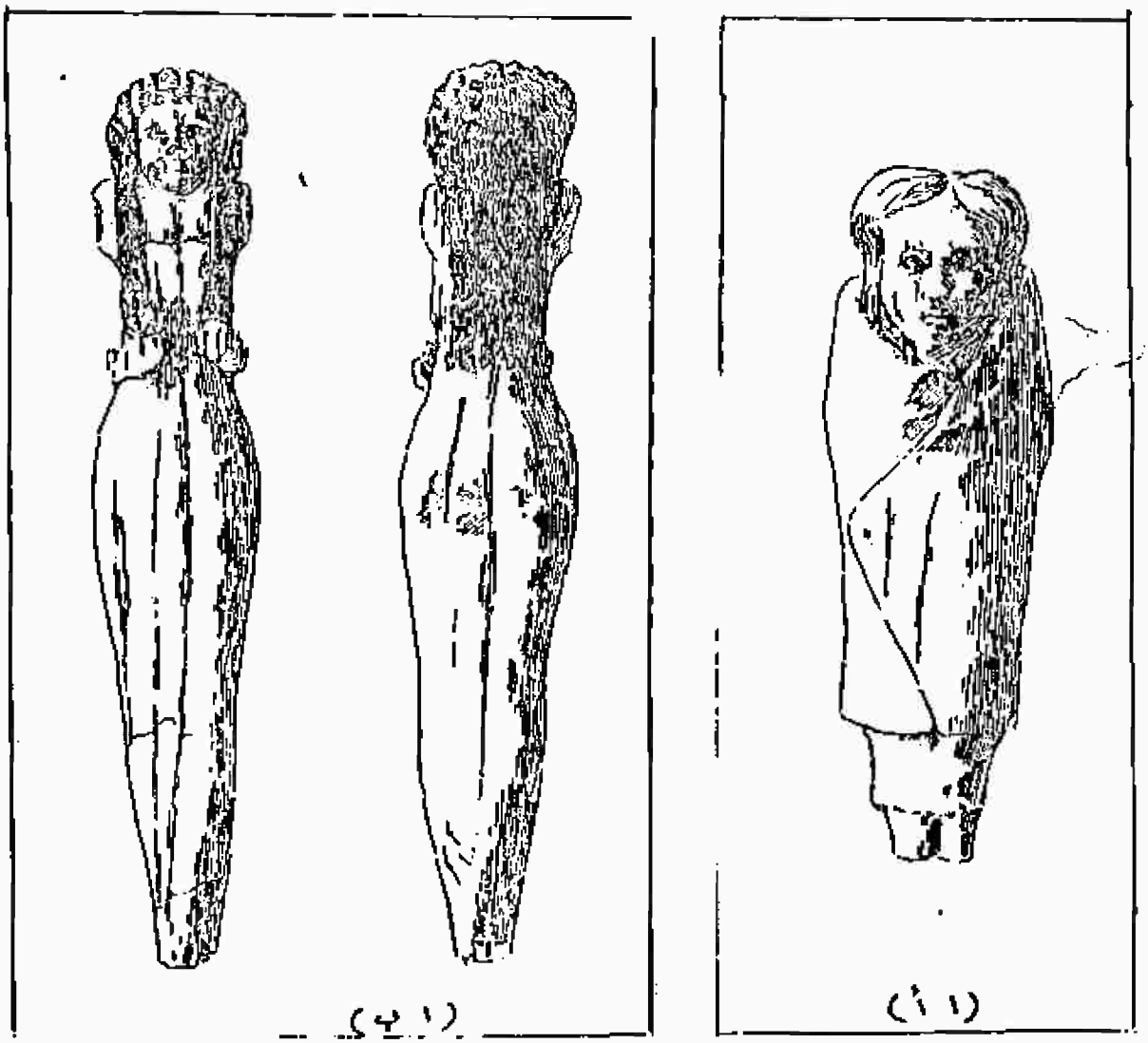

شكل رقم (١ أ) تماثيل من العاج تظهر نماذج من الستر والأرواب التى استخدمت فى عصور ما قبل التاريخ فى مصر.

Quibell, B; Hierakonopolis, PL.IX.

شكل رقم (١ ب) نموذج آخر من الستر التى تمتد من الوسط إلى أسفل الركبة صورت على تمثال من العاج يرجع إلى ما قبل التاريخ.

Quibell, B.; Ibid. PL. VII.

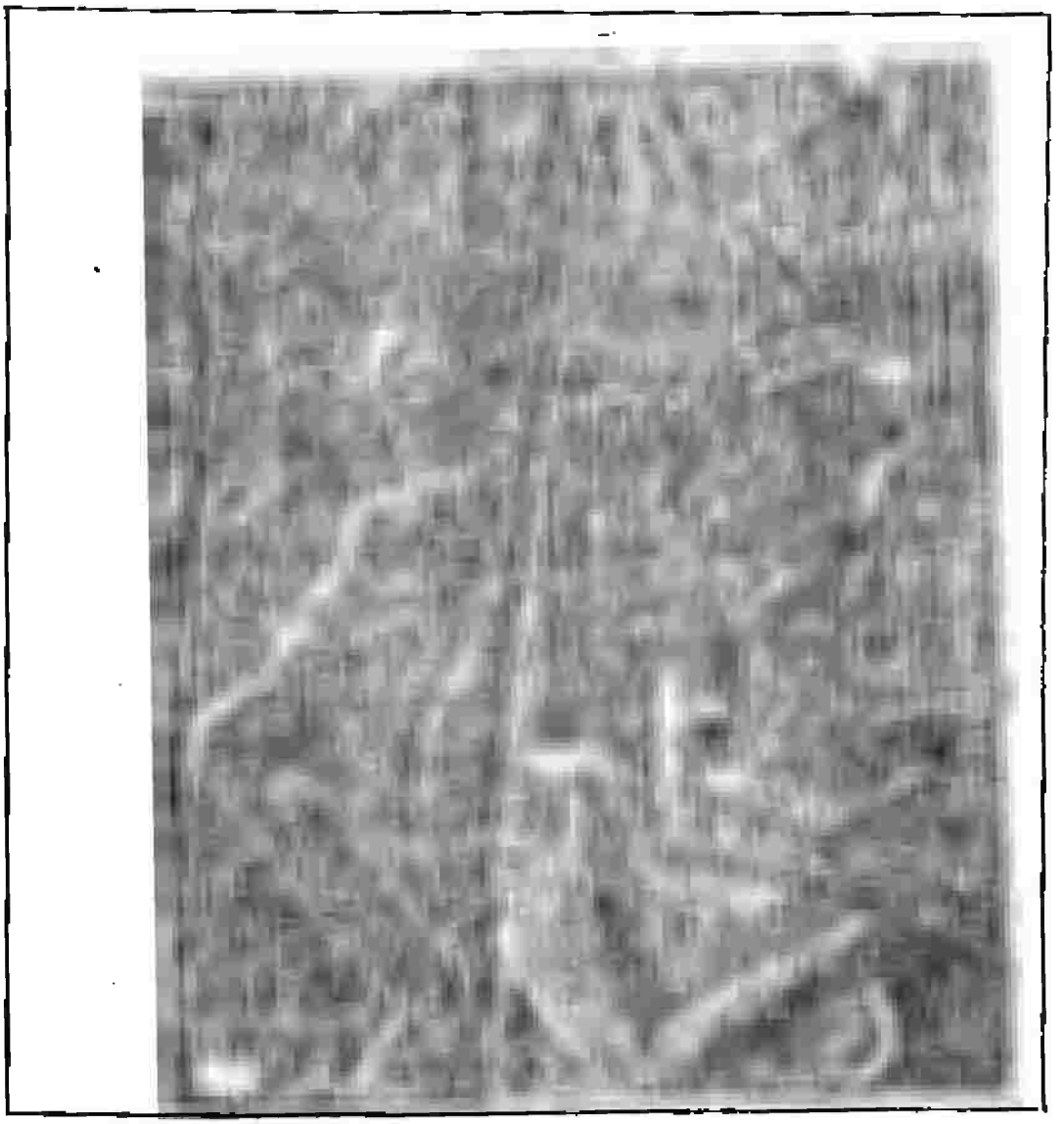

شكل رقم (٢) تصويرة ترجع إلى عصر تحتمس الرابع توضح أحد الأسرى الليبيين وهو يرتدى سترة ملفوحة من الأمام ومثبت عليها الواقي الذكري.

Bates, O.; Eastern Libyans, Fig. 31

شكل رقم (٣)

بعض أشكال الأزياء الجلدية التي استخدمها رؤساء القبائل الليبية.

مقبرة الملك سيتي الأول.

Bates, O., Ibid, pl. III

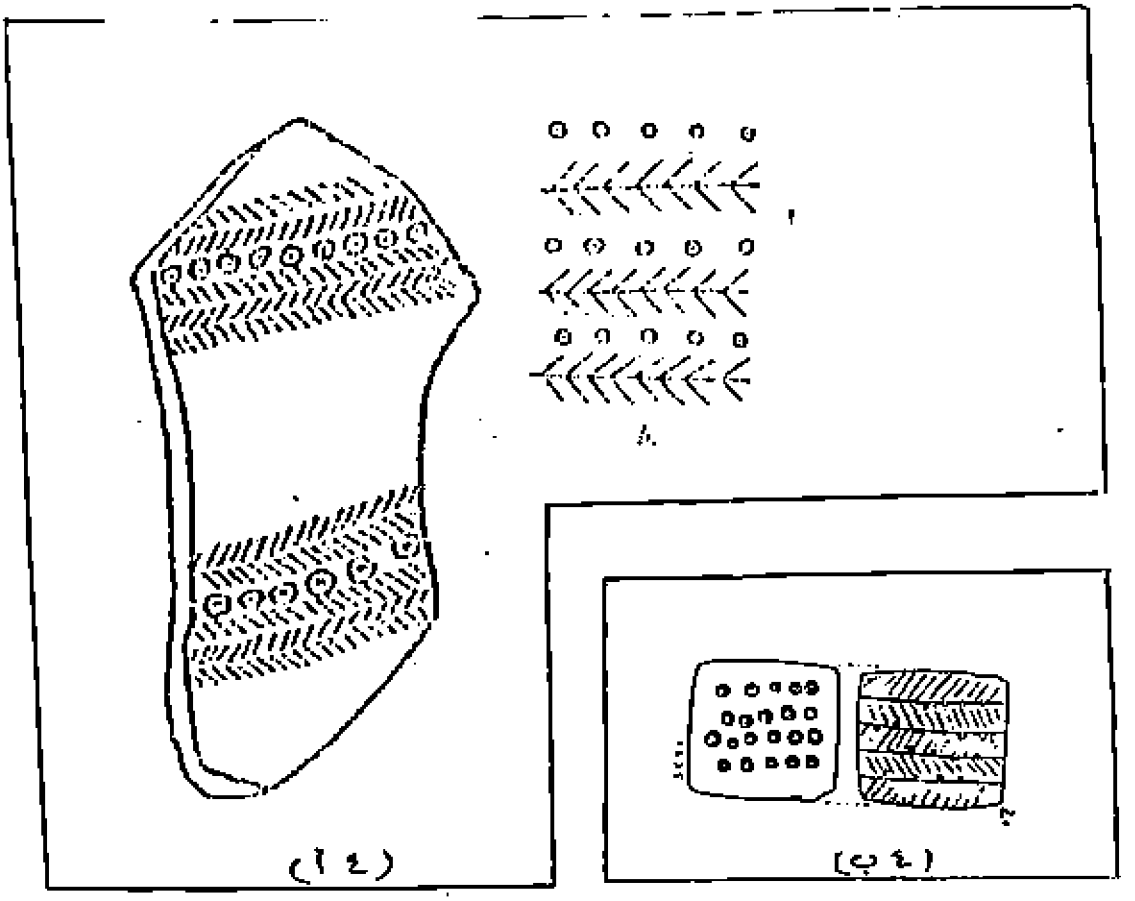

شكل رقم (١. أ) الأساليب الزخرفية التى وجدت على جدار الشقافة التى عثر عليها فى سردينا وبجوارها قطعة من المنسوجات الليبية استخدمت نفس أساليب الزخرفة السردينية.

Bates, O.; Ibid. Fig. 16. a-b.

شكل رقم (١ ب) قطعة من العاج عثر عليها فى نقادة استخدمت نفس الأساليب الزخرفية.

Petrie, & quibell., Nagada and Ballas. P L. LXII

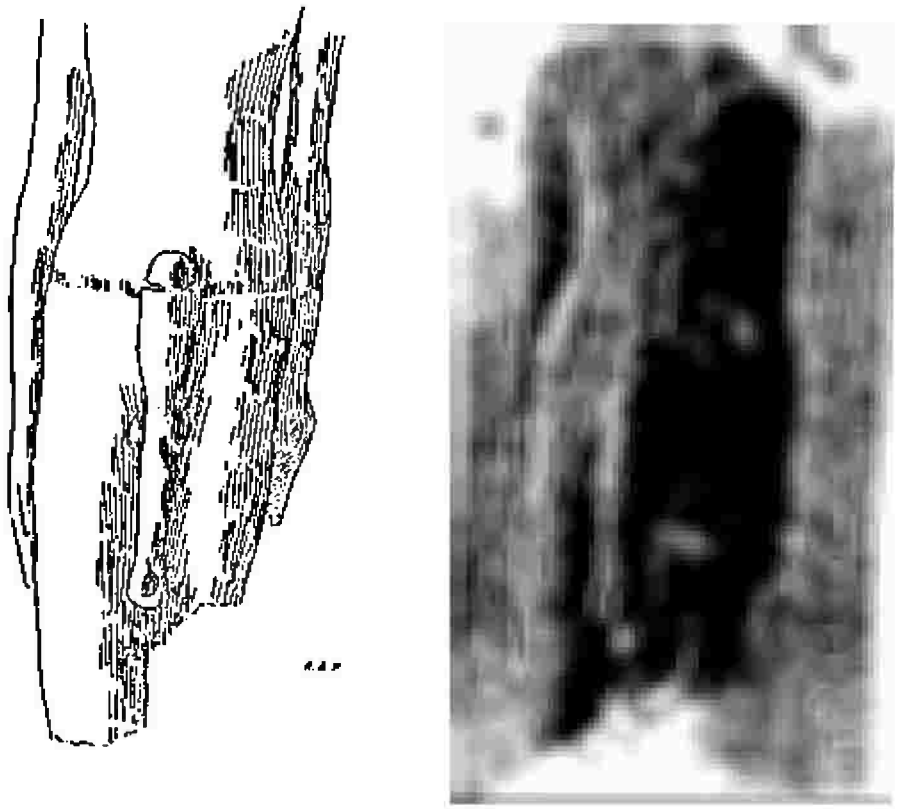

(٥)

شكل رقم (٥) . نماذج من اشكال الوانى الذكرى على تماثيل من العاج ترجع إلى عصور ما قبل التاريخ فى مصر.

Quibell., Hierakonopolis, PL. VII, VIII.

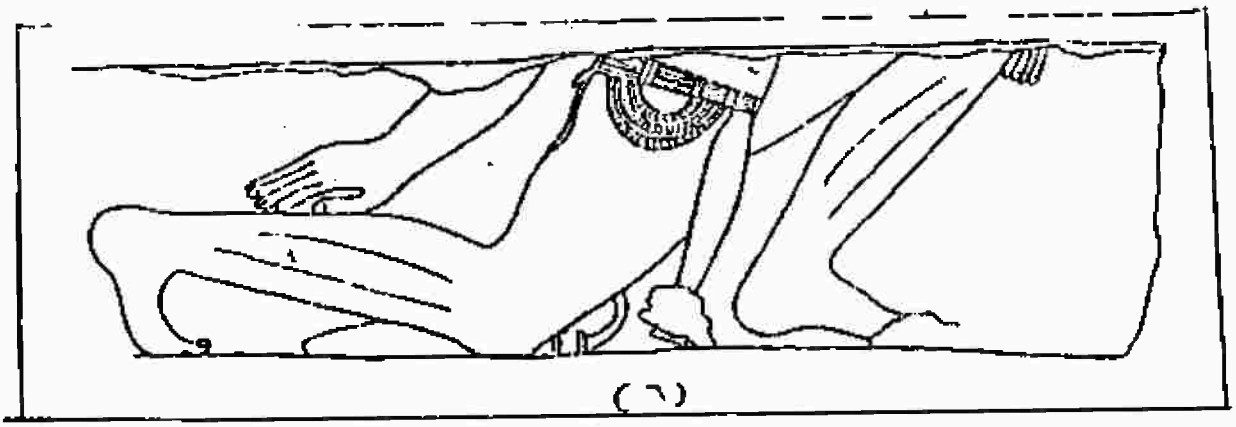

(٦)

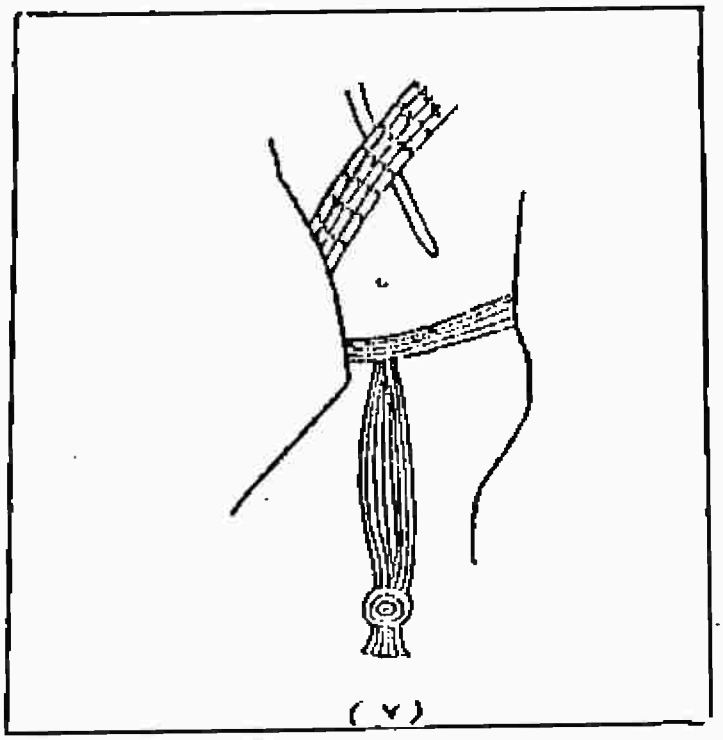

(٧)

شكل رقم (٦) نمـــوذج لأحد أشكال الواقى الذكرى على تصويرة من مقـــبرة (نـــى أوسر رع) الأسرة الخامسة.

Bates, O.; Op.Cit., Fig. 19

شكل رقم (٧) شكل جديد من الواقى الذكرى يرجع إلى عصر الدولة الحديثـــة وتمـــيز بخطوط الزينة الطولية وثبت عند نهايته دلاية كروية الشكل.

Bates, O ; Ibid, Fig. 21.

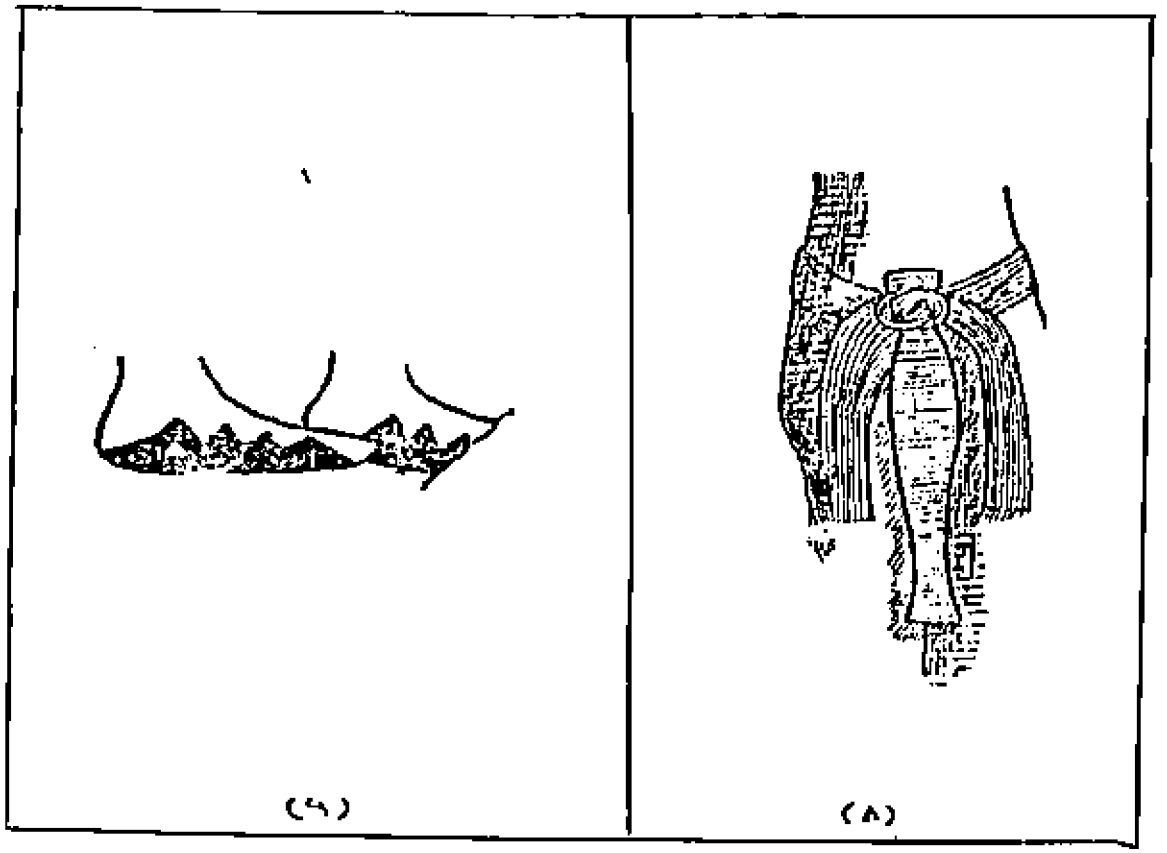

(٨)

(٩)

شكل رقم (٨) أحد التماثيل الليبية المقدسة يظهر اسلوبا جديدا لطريقة تثبت الواقي الذكري.

Bates, O., Ibid. Fig. 26.

شكل رقم (٩) نموذج أحد أشكال (الخف) التي استخدمتها القبائل الليبية.

Foot-Wear

Bates, O., Ibid. Fig. 30

ترجمة مقال

Rechel Arie "Viajeros De Occidente a Oriente"
Al-Andalus Y El Mediterraneo, Granada, 1995

من كتاب

Al-Andalus Y El Mediterraneo, Espana, 1996,
p. 169 - 185

ترجمة مقال

الدكتورة راشيل آربيه 'رحالة من المغرب إلى المشرق' إحدى
مقالات كتاب 'الأندلس والبحر المتوسط" غرناطة، ١٩٩٥م

بحث مقدم من

الدكتورة

سحر عبد العزيز سالم

ترجمة مقال

Rechel Arie "Viajeros De Occidente a Oriente" Al-Andalus Y El Mediterraneo, Granada, 1995

من كتاب

Al-Andalus Y El Mediterraneo, Espana, 1996, p. 169 - 185

ترجمة مقال

الدكتورة راشيل آريه "رحالة من المغرب إلى المشرق" إحدى مقالات كتاب "الأندلس والبحر المتوسط" غرناطة، ١٩٩٥م

تميز العصر الوسيط بوجود تبادلات ثقافية بين مسلمي الأندلس ومعاصريهم من المشرق في ظل الخلافة العباسية؛ وأكثر تلك الصلات الروحية عمقًا تتمثل في الحج للأراضي الإسلامية المقدسة، مما حمل كثيرًا من الأندلسيين إلى المشرق.

وكان الفقهاء الأندلسيون ينتقلون من بلادهم طلبًا للمعرفة، مدفوعين بدافع الرغبة في المشاركة والحضور في مجالس شيوخ المشرق المشهورين للحصول على إجازاتهم وطمعًا في إثراء مكانتهم العلمية بين أقرانهم ومواطنيهم.

وكان طلاب العلم والحجاج الأندلسيون يبدأون رحلة طويلة كانت تنتهي بهم إلى بلاد العرب (الحجاز) ليعودوا بعد ذلك في النهاية إلى موطنهم الأم.

وكانوا يتغربون طوال أشهر وأحيانًا سنوات عديدة مجتازين البحر المتوسط مواجهين مخاطر الملاحة كما كانوا يجتازون برًا طريقًا لا نهاية له متموجًا بسبب تعرجات سواحل أفريقية ثم بعد ذلك خلال صحارى ليبيا حتى يصلوا إلى ضفاف النيل الخضراء، وابتداء من القرن الثاني عشر شهد الغرب الإسلامي ظهور نوع أدبي أصيل يتمثل في أدب الرحلة. وكانت روايات الرحالة تخضع للتقاليد المشرقية وعلى الأخص للرصيد الثقافي القديم الذي كان يسود في الساحل الشرقي من حوض البحر المتوسط وكانت كتابات البحريين

بوجه خاص لها أثر عميق على تطور الأدب الجغرافي خلال القرن العاشر. ومع ذلك فعلى تراب الأندلس نشأت الرحلة وبصفة خاصة عندما تحققت وحدة الغرب الإسلامي بفضل المرابطين والموحدين وكانت مادة الرحلة تقوم على طلاب العلم الذين يتوجهون للأراضي الإسلامية المقدسة للحج ولطلب العلم والاستزادة على أيدى علماء في الحواضر المشرقية الكبرى مثل بغداد والقاهرة ودمشق مسجلين انطباعاتهم في الرحلة يومًا بعد يوم وأحيانًا ساعة بعد أخرى على هيئة يوميات حيث يصفون المفاجآت والصعوبات التي حدثت لهم أثناء رحلتهم، ويمثل أبو حامد الغرناطي (١٠٨٠ - ١١٦٩ - ١١٧٠م) النموذج الأول للرحالة المغاربة وقد ترك موطنه وهو في حوالي الثلاثين من عمره ولم يعد إلى بلاده أبدًا[١]. وعاش في القاهرة ودمشق وبغداد لسنوات طوال ودفعه حب المغامرة للوصول إلى الحدود القصوى لأراضي الإسلام وفي عام ١١٣٠م وجدناه في إيران وبعد ذلك وصل إلى مصب نهر الفولجا. وسيزور بعد ذلك بقليل المجر حيث أقام لمدة ثلاث سنوات حتى عام ١١٤٣م، ثم اجتاز بلاد الصقالبة ولحق بخوارزم ومن هناك توجه إلى بخارى، ومرو، ونيسابور، والرى، وأصفهان والبصرة، حتى أدرك بلاد العرب لأداء الحج ثم تابع رحلته وأقام في بغداد والموصل، وختم حياته في دمشق بسوريا. وفي بغداد وبعدها في الموصل ألف أبو حامد كتابين آخرين تلبية لرغبة صنائعه ومريديه العراقيين، هما كتاب (المعرب عن بعض عجائب المغرب) وكتاب تحفة الألباب (أو الأحباب) ونجعة[*] الإعجاب) اللذين يحتويان على كثير من الحقائق الهامة والإرشادات القيمة الدقيقة عن مواضع وشخصيات قابلها في جولاته[٢].

ويغلب على رواياته في الرحلة الطابع الخيالي وبعض العجائب مما جعل الأستاذ سيزار دوبلر يقدر من جانبه في أبي حامد تشبعه بالعاطفة الإنسانية وابتعاده عن الغطرسة الشخصية التي تحوله إلى "عالم غريب للأجناس والفنون

---

[*] صحتها نخبة.

الشعبية فى عصره" وهو يصفه بقوله : «أبو حامد رحالة متجول، اتصف بالبساطة، كما كان واعظًا فى بعض الأحيان على قدر من الثقافة وليس عالمًا متبحرًا، كان يبدو بشوشًا مع الآخرين له مكانة عالية بين الناس وكان على علاقة طيبة بالجميع سواء أكانوا من الشخصيات الرئيسة أم أفراد الشعب البسطاء وكان يوجه محبه صادقة نحو الشعوب والأشخاص الأسيو/ أفريقيين الذين كان يطوف بهم، تعمقت خلال ما يقرب من عشرين سنة عن طريق علاقات مختلفة أسرية وعاطفية. وكانت تقديراته تتسم -بالإضافة إلى الرؤية الواضحة للموصوف فى حد ذاته- بالفهم الإنسانى الذى تبحث عنه عبثًا فى شخص آخر لا يملك القوة الفعالة لمؤلفنا؛ لقد كانت كتاباته الوصفية سهلة ذات طابع متحرر ورائع وكانت تهتم بوجه خاص بكل غريب وعجيب، ولا تجعلنا نراه يمثل عالمًا متعمقًا بعلمه وإنما رجلاً متفهمًا ذا رؤية واسعة، وفى الوقت نفسه متعمقة فى التفاصيل غنية بالمعرفة الإنسانية»[٣].

أما رواية الرحلة عند ابن جبير فقد ارتبطت بأستاذه الأول (١١٤٥-١٢١٧)[٤] وهذا الأديب البلنسى تلقى علومه فى شاطبة حيث كان والده يعمل كاتبًا لدى الموحدين، وتلقى التعليم التقليدى شأنه شأن مثقفى الأندلس وعلمائه. كما اطلع على مبادئ العلوم الدينية والآداب واكتسب الوسائل لاستخدام ملكته الشعرية. وقد اختاره الأمير الموحدى أبو سعيد عثمان ابن الخليفة عبد المؤمن حاكم سبتة كاتبًا خاصًا له، وبعد ذلك رافقه فى منصبه التالى عندما أسندت إليه ولاية غرناطة، ثم التحق ابن جبير بخدمة أمير موحدى آخر وهو الذى حثه على شرب الخمر وقد ألزم كاتبنا على أن يذهب للحج فى هذا العام نفسه تكفيرًا عن خطئه هذا، وحاز شهرته بفضل رواياته الشيقة عن رحلته إلى مكة المكرمة.

وغادر ابن جبير غرناطة فى ١٩ شوال سنة ٥٧٨هـ (١٥ فبراير ١١٨٣م) ووصل إلى سبتة عن طريق طريف، وركب سفينة جنوية فى طريقه إلى الإسكندرية مرت بجزيرة سردانيا وصقلية، وأقريطش، ولذا فقد تأخر لمدة

شهر فى الوصول إلى الميناء الذى يهدف إليه، وروى لنا ابن جبير بكل مصداقية المضايقات التى تعرض لها فى الديوان الجمركى المصرى.

وقد زار القاهرة أثناء توجهه إلى البحر الأحمر للوصول إلى جدة، وبقى فى مكة ما يزيد على تسعة أشهر بعد أدائه فرائض الحج ثم انتقل بعد ذلك إلى المدينة وتابع رحلته عبر الصحراء حتى الكوفة، واستكمالاً للرحلة سار حتى بغداد والموصل وحلب Alepo وحماة وحمص ودمشق حيث أقام شهرين ونصف ثم تابع رحلته إلى صور ومن هناك إلى عكا وبعدها ركب فى رجب ٥٨٠هـ (أكتوبر ١١٨٥م) فى سفينة جنوية متجهة إلى صقلية بنية العودة إلى الأندلس، وعندما أدرك مسينا بعد اجتياز صعب انتهى الأمر بغرق السفينة وبقى فى صقلية لمدة ثلاثة أشهر ونصف حتى ركب سفينة من جديد فى ترابانى ووصل إلى قرطاجنة فى سنة ١١٨٥م فى شرق الأندلس.

وعند عودته إلى غرناطة، نعم بسلطة روحية كبيرة فقد أصبح أستاذاً للحديث والعلوم الدينية التقليدية وللصوفية أيضاً. واستمر بعيداً عن العامة لكنه قام بدور المفتى والحكم. وعن رحلته الثانية إلى المشرق التى استمرت من ١١٨٩ - ١١٩١ / ١١٩٢م. واستقر بالإسكندرية حيث انكب على التعليم، وبعد شهور رحلته، توفى هناك فى ٢٧ شعبان ٦١٤هـ / ٢٩ نوفمبر ١١٢١٧م، وكانت رحلة ابن جبير نموذجًا احتذاه حجاج آخرون ومؤلفون كثيرون متأخرون، ولقد عرف كيف يسجل ملاحظاته اليومية ويصف البلدان التى كان يجتازها ويعدد الآثار التى كان يزورها، وكان حبه للرحلات البحرية المثيرة يقدم لنا مدى احترامه للبحر مصدر إلهامه. وهكذا يذكر فى مذكراته رحلته البحرية الأولى التى بدأت "على متن البحر إزاء جبل شلير فى ٢٥ مارس سنة ١١٨٣م. وبعد أربعة أيام من الركوب فى الطريق تجاه قصر مصمودة (القصر الصغير) وبعد اجتياز بحرى يسره الله تيسيرًا عجيبًا والحمد لله، استكملوا الرحلة إلى سبتة حيث ألفوا بها مركبًا للروم الجنويين مقلعًا إلى الإسكندرية بحول الله عز وجل

فسهل الله علينا فى الركوب فيه «ويمضى فى روايته قائلاً من سبتة[٥] : «وكان طريقنا فى البحر محاذيًا لبر الأندلس وفارقناه يوم الخميس ٣٠ مارس عندما حاذينا دانية. وفى صبيحة يوم الجمعة (٤ مارس) قابلنا بر جزيرة يابسة ثم يوم السبت بعده قابلنا بر جزيرة ميورقة ثم يوم الأحد بعده قابلنا جزيرة منورقة ... وفارقنا بر هذه الجزيرة المذكورة، وقام معنا بر جزيرة سردانيا أول ليلة الثلاثاء... (وهو الثامن من مارس دفعة واحدة على نحو ميل أو أقل ... فكان لطفًا مستغربًا فى السرعة وطرأ علينا من مقابلة البر فى الليل هول عظيم عصم الله منه بريح أرسلها الله تعالى فى الحين من تلقاء البر فأخرجنا عنه والحمد لله على ذلك. وقام علينا نوء هال له البحر صبيحة يوم الثلاثاء المذكور وبقينا مترددين بسببه حول بر سردانية إلى يوم الأربعاء بعده فاطلع علينا فى حال الوحشة وانغلاق الجهات بالنوء فلم نميز شرقًا من غرب، مركبًا للروم قصدنا إلى أن حاذانا، فسئل عن مقصده، فأخبر أنه يريد جزيرة صقلية وأنه من قرطاجنة عمل مرسية. وقد كنا استقبلنا طريقه التى جاء منها من غير علم فأخذنا عند ذلك فى اتباع أثره والله الميسر لا رب سواه ... إلى أن وصلنا طرفا من البر المذكور يعرف بقوسمركة ... وفى مدة مقامنا بالمرسى المذكور جددنا فيه الماء والحطب والزاد، وفى الثلاثاء الخامس عشر من مارس فارقنا بر سردانية المذكورة، ويسر الله علينا فى التخلص من بحرها لأنه أصعب ما فى الطريق والخروج منه يتعذر فى أكثر الأحيان والحمد لله على ذلك. وفى ليلة الأربعاء بعدها من أولها عصفت علينا ريح هال لها البحر وجاء معها مطر ترسله الرياح ويضيف ابن جبير : «وترسله الرياح بقوة كأنه شآبيب منهام فعظم الخطب واشتد الكرب وجاء الموج من كل مكان أمثال الجبال السائرة فبقينا على تلك الحال الليل كله واليأس قد بلغ منا مبلغه وارتجينا مع الصباح فرجة تخفف عنا بعض ما نزل بنا، فجاء النهار وهو يوم الأربعاء التاسع عشر من ذى القعدة بما هو أشد هولاً وأعظم كربًا وزاد البحر اهتياجًا واربدت الآفاق سوادًا واستشرت الرياح والمطر

عصوفًا حتى لم يثبت معها شراع فلجأ إلى استعمال الشرع الصغار فأخذت الريح أحدها ومزقته وكُسرت الخشبة التى ترتبط الشرع فيها وهى المعروفة عندهم بالقرية.

وألمنا على تلك الحال النهار كله فلما جن الليل فترت الحال بعض فتور سرنا فى هذه الحال كلها بريح الصوارى سيرًا سريعًا وفى ذلك اليوم حاذينا بر جزيرة صقلية.

وفى صبيحة يوم السبت ٢٥ مارس اطلع الله علينا البشرى بالسلامة بظهور منار الإسكندرية على نحو العشرين ميلاً وبالإضافة إلى خبرته بالبحر، كان ابن جبير كما وصفه موريس جودفرى ديمومبينس[٦] عارفًا بخطط المدن ولديه حس بالعمران. وقد امتدح الموصل وحدائقها وأعجب بنواحى نصيبين التى كانت تتعارض مع بدوية المدينة. أما أوصافه لحلب ودمشق فلم تكن بالتفاهات الأدبية، كذلك لم يكن غير مكترث أمام عظمة الطبيعة ولا الهواء الحيوى لنجد بعد خروجه من جحيم الحجاز، ويبدوأن ذلك أيقظ فيه الرغبة التى كان يحس بها أسلافه عند اجتيازهم أراضى الاستبس الفسيحة.

وعن السكان الذين عاش بينهم ابن جبير يقدم لنا معلومات فى رحلته اعتبرت من المصادر الرئيسة عن تاريخ الحروب الصليبية وعن الأوضاع السياسية والاجتماعية فى المناطق التى اجتازها وعن الحج فى مكة والأخطار الملاحية التى تمر بهم أثناء عبورهم فى البحر المتوسط فى العصور الوسطى.

وقد تميز ابن جبير بإحساسه القوى وروحه المتزنة للغاية والمنطلقة للمعرفة. أما حساسيته الدينية فقد لمعت فى فقرات معينة، ظهر خلالها مدى انزعاج المستشار السابق للحاكم الموحدى لغرناطة من تقدم المسيحيين فى سورية وصقلية وهو الذى كان لديه ثقة مطلقة فى الرسالة العالمية لأسرة الموحدين.

ولم يكن اهتمامه بأحوال الشعوب والعزارعين فى المشرق الإسلامى عميقًا، ومع ذلك فإن أسلوبه كان سلسًا ومركزًا ومهتزًا فى الفقرات التى صور

فيها الأحداث على النحو الذى يمتثله الجوالة المحدثون. ويعتقد ريجيس بلاشير أن ابن جبير «كلما حدد ملامح حشد حركى أو جمع حيوى، كان يعرف كيف يصفه على نحو صادق وشخصى للغاية وثابت كما رأته عيناه الثاقبة المدققة»[٧].

وكان أسلوب ابن جبير زاخرًا بالمحسنات فقد لجأ إلى استعمال النثر المقفى فى وصفه للمدن والظواهر العامة لكل بلد. أما شعره فكان يميل إلى طابع الحكم والأمثال وهو تقليدى ويرهن على بساطة فى الإحساس والتجربة.

وقد اتخذت يوميات الرحلة إلى الأراضى المقدسة الإسلامية شكلاً جديدًا فى النصف الأول من القرن الثالث عشر بفضل محمد العبدرى أحد الأدباء المغاربة[٨]. ونجهل تاريخ مولده ووفاته ولكننا نعلم أن يرجع بالنسب إلى أصول عربية بعيدة وإنه كان ينتمى إلى قبيلة حاحة التى كانت تنزل بالقرب من المدينة المغربية الحالية الصويرة التى كانت تسمى من قبل بموجادور، ونشأ فى بيئة أسرية. ولعله عاش فى مراكش. وقد ترك أرضه فى ذى القعدة سنة ٦٨٨هـ (١٠ ديسمبر ١٢٨٩م)، وقرر الارتحال عبر الطريق البرى، وزار تلمسان Termecen حيث عقد روابط روحية مع لقهائها وعلمائها المحليين وذلك قبل انتقاله إلى مليانة Milliana، وبجاية Bugia وقسنطينة وبونة وباجة وتونس حيث أجرى مناقشات طويلة مع علماء أفريقية. ورحل إلى القيروان حيث اجتذب مسجدها الجامع إعجابه، ومن هناك انتقل إلى قابس وطرابلس. وتابع رحلته مجتازًا الصحراء إلى أن وصل إلى الإسكندرية حيث أتيحت له الفرصة فوصف ميناء الإسكندرية، ومن هناك لحق بالقاهرة ومن العقبة دخل الحجاز حيث أتم الحج فى مكة والمدينة، وفى العودة تخير طريق فلسطين ليزور حبرون والقدس عائدًا بعد ذلك عبر القاهرة والإسكندرية. وقد غير قليلاً من طريقه بعد أن اجتاز إقليم طرابلس، فقد سار من قابس إلى سوسة، وبعد ذلك تابع طريقه بمحاذاة الساحل حتى تونس. ووصل إلى بجاية عبر مليانة ووهران وتلمسان وفى المغرب وطنه كانت فاس ومكناس وازمور هى آخر محطاته، وتنتهى

رحلته بقصيدة طويلة، وفى رحلة العبدرى نجد أن الأوصاف الفخمة للمدن الشهيرة ليست سوى أسلوب أدبى معتنى به وأسلوبه فى ذلك يكاد يكون دائمًا مفتعلاً، فإن سرده للرحلة كان مملوءًا بأبيات أنشدها جماعة من المتصلين بالمؤلف.

إن الاهتمام بدراسة فكر الفقهاء يؤكد على الغايات الصوفية للعبدرى[٩] فهو يقدم حقائق كثيرة عن الحالة التى كان عليها الفكر الإسلامى.

إن مؤلفى المقال الذى كتب عنه فى دائرة المعارف الإسلامية رقم ٩ يرون أن نيته الأخلاقية كانت «تهدف إلى إبراز مدى الفقر المادى والروحى لأفريقيا والمغرب الأوسط فى عصره» ولهذا السبب فإن رحلته تعتبر إسهامًا رئيسًا فى التاريخ الثقافى لشمال أفريقيا.

وعلى نسق الطابع الأدبى نفسه الذى شرع فيه العبدرى ينتمى كتاب، لفقيه أندلسى مغربى لا يمكن فصل حياته ولا كتابه عن تاريخ الأدب فى مملكة غرناطة وأعنى به ابن رشيد الذى ولد فى سبتة سنة ١٢٥٩م حيث درس العلوم النقلية والنحو[١٠].

وفى عام ١٢٨٤م قرر الرحيل إلى المشرق للحج والتوسع فى علومه. وركب سفينة فى المرية حيث اجتمع معه ابن الحكيم الرندى وزير البلاط النصرى فيما بعد[١١].

وخلال ثلاثة أعوام طاف كلاهما بأفريقية، ومصر، وسورية، والحجاز متابعين دروسهما على أيدى أشهر شيوخ العلم فى المشرق وشمال أفريقيا. وعند العودة إلى سبتة أمضى ابن رشيد عدة سنوات لا نعرف فيها شيئًا عنه، ورحل بعد ذلك إلى مملكة بنى نصر فى سنة ٦٩٢هـ (١٢٩٢ / ١٢٩٣م) معتمدًا على العون الذى قدمه إليه رفيق رحلته القديم المدعو ابن الحكيم. وإلى جانب وظائف أخرى مختلفة تولى منصب إمام وخطيب بغرناطة، وبعد اغتيال حاميه فى مارس ١٣٠٩م عاد ابن رشيد إلى المغرب حيث عهد إليه عثمان بن أبى يوسف

السلطان المريني بإدارة خطبة الجامع القديم بمراكش وتوفى فى ٢٣ محرم سنة ٧٢١ / ٧٢٢هـ (فبراير ١٣٢١م) فى فاس متدرًا من الجميع.

وتحتفظ مكتبة دير الإسكوريال بالجزء الأكبر من روايته لرحلته على هيئة قطع مخطوطة بعنوان "ملء العيبة بما جمع بطول الغيبة فى الوجهة الوجيهة إلى الحرمين مكة وطيبة" حيث يحكى عن إقامته فى تونس ودمشق والقاهرة، وتحتوى هذه الرحلة على معلومات جغرافية نادرة وبعد فإن المصادر أجمعت على الثناء عليه وعلى اتساع معرفته فقد تخصص فى تسجيل القضايا التى عالجها وناقشها مع المثقفين الذين لاقاهم فى طريقه.

أما خالد البلوى فهو من الحجاج الأندلسيين الذين رحلوا فى القرن ١٤ فى قوافل إلى مكة، وقد كتب يوميات رحلته إلى الأراضى المقدسة "تاج المفرج فى تحلية علماء المشرق" وقد نشرت فى الرباط منذ عدة سنوات[١٢]، وينحدر البلوى من أسرة من الأدباء ترتقى إلى أصول عربية يمنية وولد فى لنطورية (المرية)، وتلقى البلوى فى غرناطة ثقافة أدبية وفقهية راسخة.

وفى أكتوبر ١٣٣٥م عندما بلغ الثالثة والعشرين، ركب سفينة فى المرية ووصل حتى هينن Hunnayn وبعدها رحل إلى تلمسان والجزائر وبجاية وقسنطينة وبونة حتى وصل إلى تونس حيث أقام أكثر من ثمانية أشهر ثم أبحر إلى الإسكندرية، وفى هذه المرحلة التقى بحاج أندلسى آخر هو الشاعر ابن حاج نميرى ابن رجل غرناطى سامى المقام[١٣]، وبعد شهر وصل إلى القاهرة حيث بقى خمسة عشر يومًا خصصها للدراسة.

وكان يحكم هناك آنذاك محمد بن قلاوون السلطان المملوكى الذى كانت له بعد ذلك بقليل مراسلات رسمية مع غرناطة النصرية. وقد جاز كاتبنا بعد ذلك كل من غزة وحبرون حتى وصل إلى بيت المقدس حيث قضى شهرين. كما مر بالكرك والعلا ووادى القرى حيث وصل إلى المدينة ومن هناك وصل إلى مكة فى ذى الحجة سنة ٧٣٧هـ (يوليو ١٣٣٧م). أما رحلة العودة فقد أدت به إلى

القدس والرملة وعسقلان حتى وصل إلى القاهرة والإسكندرية ومن هناك رجع إلى تونس جاعلاً من طبرق محطة له في برقة.

وبعد أن طاف بالمغرب الأدنى والأوسط وصل إلى هنين Hunayn حيث أبحر أخيرًا في اتجاه المرية. ومن جديد وطأت أقدامه أرض الأندلس، وكان ذلك في يونيو من عام ١٣٤٠م بعد غيبة خمسة أعوام، وتولى قضاء قنتورية وبعدها برشانة وعلى نهر المنصورة أكمل محطات رحلته حتى أنجز كتابه في ربيع الأول سنة ٧٦٨هـ (نوفمبر / ديسمبر ١٣٦٦م).

أما لسان الدين بن الخطيب الوزير والمؤلف النصري، فقد ترك لنا صورة طريفة للبلوى. وقد صاحب ابن الخطيب السلطان يوسف الأول في زيارته التفتيشية على الأراضي الشرقية لغرناطة سنة ١٣٤٧م، وقد صور لنا قاضي برشانة في صورة طريفة وذلك عندما خرج لاستقبال الركب الملكي فوصفه لنا كرجل لطيف في ترحابه، مختال ومزهو بثقافته الأدبية مقلد في تكلف شديد وجدية تامة للهجات المشارقة. وبدأ ابن الخطيب في هجائه، إذ كان مخدوعًا بمظهره كحاج بين رجال إدارته، وكان يضع طيلسانًا أبيض على عادة أهل الحجاز كما ترك طرفًا من عمامته ينسدل على جبهته تمامًا مثل الجمل بلجامه على أنفه على حد وصف ابن الخطيب[١٤].

وقد جاء أكثر هجاء ابن الخطيب وذمه لقاضي برشانة على هيئة نثر مقفى مأخوذ من كتاب البرق الشامي[١٥] للكاتب المشرقي عماد الدين الأصفهاني موهمًا بأنها أبياته. وفي القرن ١٧ كرر المقري التلمساني اتهام ابن الخطيب بانتحال الأبيات كما علق على هجائه للبلوى بأنه كان عنيفًا[١٦]، ولم يكن البلوى في كتابه عن رحلاته يهدف إلى معالجة تاريخية أو جغرافية جادة، وكذلك لا يتسم وصفه لكل من الإسكندرية والقاهرة بالمصداقية والأصالة وملاحظاته عن ديوان الإسكندرية والمضايقات التي تعرض لها كثير من الرحالة المغاربة المسلمين أوردهاكل من ابن جبير وابن رشيد.

وكذلك نجد أن وصفه لمارستان القاهرة والأهرام يذكرنا بما أورد ابن جبير. أما الى الفقرات الكبيرة التى خصصها البلوى لوصف القرافة والمساجد فى القاهرة فهى تنم عن تعصبه الدينى وعن مشاعره الحية التى أظهرها فى مناسبات مختلفة، مثلما كتب عن النصوص الجنائزية وشواهد القبور فى تلك الأماكن والتى طالما أثارت إعجابه، ولم يأت بروايات غريبة فى سياق حديثه عن الرحلة لاسيما عند عرضه لأخطار الطريق، واستدعائه للأحداث والخطوب التى ألمت به فى طريقه الطويل.

وقد أفاد البلوى من إقامته فى كل من المغرب والمشرق فى متابعة الدروس التى تلقاها على أيدى أكبر العلماء فى عصره وللحصول على إجازاتهم، كذلك قدم لنا بأسلوب فخم، مختصرات للمناقشات التى دارت بينه وبين علماء المشرق والمغرب الإسلامى، ونقل لمواطنيه الأندلسيين بعض النصوص الشعرية والنثرية التى لا زالت مفقودة وغير معروفة حتى الآن.

وتندرج روايته للرحلة ضمن حلقات سلسلة العلاقات، والروابط الثقافية بين الأندلس وباقى أراضى العالم الإسلامى.

وفى القرن الرابع عشر أيضًا يظهر رحالة آخر، ليعطينا بعدًا جديدًا فى نسيج أدب الرحالة ذلك هو ابن بطوطة الذى ولد فى طنجة فى سنة ٧٠٣هـ (١٣٠٤م) حيث تلقى علومًا فقهية لغوية[١٢].

وفى سنة ١٣٢٥م عندما بلغ احدى وعشرين سنة رحل إلى المشرق عبر تونس ومصر والشام لأداء فريضة الحج فى مكة لأول مرة، ثم رحل بعد ذلك إلى شرق أفريقيا ومصر والشام وآسيا الصغرى وأدرك الهند وأقام بعض السنوات فى دلهى على نهر الجانج حيث أسند إليه قضاء المذهب المالكى، وقد كلفه محمد بن تغلق سلطان دلهى بالقيام بسفارة إلى الصين فرحل ابن بطوطة إلى تندهار على ساحل الدكن الغربى وأبحر حتى قاليقوط والمالديف حيث عمل قاضيًا لمدة ثمانية عشر شهرًا، ثم ذهب بعد ذلك إلى الصين.

وفى سنة ١٣٤٧م رجع عبر سومطرة إلى الهند ومنها إلى جنوبى شبه جزيرة العرب ثم صعد مرة أخرى ساعيًا إلى عبور الخليج الفارسى ليزور فارس والعراق والشام ومصر، ومن جديد اتجه إلى مكة وأتم حجته الأخيرة.

وفى أبريل من عام ١٣٤٩م اتخذ القرار بالعودة إلى المغرب فأبحر من الإسكندرية حتى بلغ تونس وتابع بحرًا حتى وصل تنس ومن هناك ركب برًا حتى تلمسان ومنها تابع إلى فاس وكان ذلك زمن السلطان أبى عنان المرينى (أواخر شعبان سنة ٧٥٠هـ / أكتوبر ١٣٤٩م)، وبعد إقامة قصيرة فى فاس قام بزيارة مملكة غرناطة زمن السلطان يوسف الأول، وطاف أهم مدنها مثل رندة ومالقة وغرناطة حيث ترك لنا انطباعات وإشارات قيمة -وجاز من جبل طارق بحرًا إلى سبتة، وعقب رحلته الجديدة عبر بلاد المغرب، قرر التجول فى "بلاد الزنج" ووصل إلى سجلماسة حيث أمضى أربعة أشهر، وهناك اقتنى جمالاً والتحق بقافلة من التجار الذين رحلوا فى محرم من سنة ٧٥٣هـ (فبراير ١٣٥٢م)، وقد عاد إلى فاس بعد أن أقام مدة عامين فى مالى وتمبكتو، ويبدو أنه لم يترك المغرب حتى وفاته سنة ١٣٧٢ وتسمى رحلة ابن بطوطة بتحفة النظار فى عجائب الأمصار وهى ليست مكتوبة بقلمه. بل كُلف ابن جزى القائم بالكتابة فى ديوان غرناطة والذى كان قد عمل ليوسف الأول المرينى ومن بعده لأبى عنان بكتابة رحلة ابن بطوطة فى بلاط فاس فأملاه ابن بطوطة نصها بنفسه وتحت توجيهاته[١٨]. وقبل أن نتصدى لمناقشة محتوى رحلة ابن بطوطة تقرر أنها أثارت نوعًا من الحساسية لدى كتاب غرناطة. فابن الخطيب الذى لم ير الرحالة الشهير مطلقًا خصه فى موسوعته الخاصة بتراجم الرجال "الإحاطة عن تاريخ غرناطة" بملاحظات ليست كلها مديحًا متشهدًا بشيخه أبى البركات[١٩] قائلاً : «هذا رجل لديه مشاركة يسيرة فى الطب، رحل من بلاده إلى بلاد المشرق يوم الخميس الثانى من رجب عام خمسة وعشرين وسبعمائة (١٤ يونيو ١٣٢٥م). فدخل بلاد مصر والشام والعراق وعراق العجم وبلاد الهند والسند والصين،

وصين الصين وبلاد اليمن، وحج عام ستة وعشرين وسبعمائة (١٣٢٦م) ولقى من الملوك والمشايخ عالمًا وجاور بمكة، واستقر عند ملك الهند فحظى لديه وولاه القضاء، وأفاده مالاً جسيمًا وكانت رحلته على رسم الصوفية زيًا وسجية. ثم لفل إلى بلاد المغرب ودخل جزيرة الأندلس فحكى بها أ حوال المشرق فكذب وقال لقيته بغرناطة ..

وحدثنا لى تلك الليلة وفى اليوم قبلها عن البلاد الشرقية وغيرها. فأخبر أنه دخل الكنيسة العظمى بالقسطنطينية العظمى، وهى على قدر مدينة مسقفة كلها، وفيها اثنا عشر ألف أسقف. ويضيف ابن الخطيب نفسه معلومات خاصة بملاحظته الشخصية معلقًا على أوصاف ابن بطوطة فيما يتعلق بالقسطنطينية «وأحاديثه لى الغرابة أبعد من هذا». ولم يكن ابن خلدون أكثر مديحًا له من معاصريه فقد اتهم الرحالة المغربى فى مقدمته بأنه شوه الحقيقة و«أن رجال الحاشية المرينيين قصروا هذه الروايات الغريبة وعللوا ذلك بأن الرحالة روى أكاذيب».

وتصنف رحلة ابن بطوطة تحت نوعية الكتابات غير متصلة العناصر. ولقد عرفنا من ابن جزى كاتب النص أن ابن بطوطة اقتصر فى إملائه على وصف البلدان التى زارها والطرف والحوادث التاريخية التى استطاع أن يتذكرها بالإضافة إلى أن الرحالة نفسه (ابن بطوطة) أخبرنا عند حديثه عن بخارى أنه تعرض فى البحر للقراصنة الهنود، ولقد عندئذ الملاحظات التى أخذها عن رحلاته السابقة كلها ، وهذا يفسر عدم وجود إشارات أو دليل المسافر فى كتابه، أن أدلة المسافرين وعلم تسلسل التواريخ تطرح إشكاليات كما ذكر بوضوح السير هاملتون[٢٠] جب الذى وضع مصداقية تأكيدات ابن بطوطة موضع شك متخذًا مشكلة رحلة ابن بطوطة إلى المراكز التجارية ببلاد البلغار فى الفولجا الوسطى مثالاً ولى بعض فقرات كتابه المتعلقة بجنوب شرق آسيا، خلط بين ما رآه فى الرحلة وما حدث خلال رحلة أخرى فى مناسبة أخرى، ولكن توجد فى هذا

العمل بلا شك مادة تاريخية وتراجم وفيرة عن مصر وسوريا والحجاز، تسهل للباحثين المتميزين تنسيق ذلك بالمادة العلمية المستقاة من مصادر أخرى، كذلك توجد روايات أسطورية أخرى تنسجم مع ما هو خارج عن المألوف بالإضافة إلى توصيفات متكررة إلا أن الملاحظات الشخصية للمؤلف حول المراحل والأحوال الطبيعية (طبيعة الأراضي والمزروعات والمناخ والمحاصيل) وما يتعلق بالأفراد، وكل ذلك يثير الاهتمام، ويؤكد ابن جزى أنه كان يسجل كل ما كان يقصه الرحالة (ابن بطوطة) دون إضافة شيء أو إغفال شيء، وأنه كان يروى قصصًا ونوادر دون أن يتحقق من مصداقيتها مما يفسر التناقضات التى لا يغفل عنها أى ناقد، ويتتبع ابن جزى الكاتب فى كتابته القواعد الخاصة باللغة العربية الفصحى ولكن فى بعض المواضع يستخدم الدقة الضرورية فى كتابة أسماء الأعلام مما يجعل من المتعذر قراءتها بالعربية وإليه أيضًا يمكن نسبة الاقتباسات الكثيرة لابن جبير التى تتداخل فى نص كتاب الرحالة.

وقد نظم الصياغة النثرية لابن بطوطة وفقًا للذوق الأدبى آنذاك وكان يقطع خط الرواية بأبيات شعرية وباختصار فإن رحلة ابن بطوطة تعتبر واحدة من المصنفات الممثلة لأدب المشاهدة والمعاينة، ويتخلل الكتاب لون من ألوان الإثارة، وذلك عندما يبدأ المصنف روايته بالنسبة للغات الأجنبية لاسيما بالنسبة للشعوب غير العربية فى العالم الإسلامى، فوصفه لآسيا الوسطى مرصع بكلمات وتعبيرات تركية فارسية. إن ابن بطوطة يتجاوز ابن جبير بكثير فى أصالة أخباره حول البلاد البعيدة فيما يتعلق بمجال المؤسسات والتقنيات الخاصة بالحياة الاجتماعية والاقتصادية فإن ما أورده يعتبر مادة هامة، ومن العجيب على الرغم من عدم تكوين ابن بطوطة العلمى فقد وجه نظراته إلى آفاق أكثر بعدًا ممن سبقوه وكما يعبر أندرى ميكل فإن بطوطة استطاع فى النهاية الارتفاع بالرحلة إلى لوحة تصويرية صادقة للعالم.

الحواشي

١- حوله انظر مقال بدائرة المعارف الإسلامية، الطبعة الثانية لليفي بروفنسال، ج١، ص ١٢٥، ١٢٦.

٢- انظر فراند التحفة في الجريدة الآسيوية سنة ١٩٢٥ - ١٤٨، ٤٩٥ - ٣٠٣، وقام دبلر بنشر وترجمة جزء من المعرب : أبو حامد الغرناطي وروايته للرحلة في البلاد الأوربية الآسيوية، مدريد، ١٩٥٣ وكذلك الأبحاث الحديثة : أبو حامد الغرناطي (ت٥٦٥هـ) (١١٦٩م) تحفة الألباب تقديم وترجمة أراموس، مدريد، ١٩٩٠، المعرب عن بعض عجائب المغرب، تقديم ونشر وترجمة بيخارانو مدريد، ١٩٩١.

٣- دبلر، المرجع السابق، ص ١٧٤، ١٧٥.

٤- مقال شارل بلا في دائرة المعارف الإسلامية، الطبعة الثانية، مجلد ٣، ص ٧٧٧، ٧٧٨.

٥- أشير الآن إلى الترجمة التي قام بها مايو سالجاد وعنوانها "ابن جبير عبر المشرق" برشلونة، ١٩٨٨، ص ٤٨ - ٥٠.

٦- في مقدمة ترجمته الفرنسية : ابن جبير - الرحلات، ج١، باريس، ١٩٤٩م، ص ٥٩.

٧- رينيه بلاشير ودارمون : الجغرافيون العرب في العصور الوسطى، نصوص مختارة مع التعليق عليها، باريس، ١٩٥٧م، ص ٣٤٠.

٨- حول مقال محمد بن شنب ووليم هونرباخ في دائرة المعارف الإسلامية، الطبعة الثانية، مجلد ١، ص ٩٨، ٩٩، الرحلة المغربية، تحقيق وتقديم محمد الفاسي، الرباط، ١٩٦٧م.

٩- ابن شنب، المرجع نفسه، ص ٩٩.

١٠-انظر مقال راشيل آربيه فى دائرة المعارف الإسلامية، المجلد الثانى، الطبعة الثانية، المجلد الثالث، ص ٩٣٣، ٩٣٤، قطع من رحلته المخطوطة رقم ١٧٣٦ بمكتبة الإسكوريال، نشرها بلخوجة فى تونس.

١١-حوله انظر ماريا خيسوس روبيرا "ذو الوزراتين، ابن حكيم الرندى"، الأندلسى، مجلد ٣٤، ١٩٦٩م، ص ١٠٥ - ١٢١.

١٢-لا يوجد مقال فى دائرة المعارف الإسلامية، الطبعة الثانية، مخصص للبلوى، طبعة الرباط بدون تاريخ، عنوانها "تاج المفرق لحسن السائح".

١٣-ج.س. فانت، دائرة المعارف الإسلامية، الطبعة الثانية، م٣، ص ٨٠٣ : كانت شخصية ابن الحاج النميرى الذى ولد فى غرناطة فى سنة ٧١٣هـ (١٣١٣م) موضع دراسة قام بها ج.ف.ب هوبكنز بعنوان 'ابن الحاج، شاعر أندلسى من القرن ١٤" فى مجلة مدرسة اللغات الشرقية (Bulletin) مجلد ١٤، ١٩٦١م، ص ٥٧ - ٦٤. إن الرحلة التى قام بها ابن الحاج فى صحبة السلطان المرينى أبو الحسن سنة ٧٤٥هـ (١٣٤٤م) عبر شمال المغرب كانت موضع تحليل قام به أ.ل دى بريمار بعنوان "ملاحظات عن رحلة أبى إسحاق إبراهيم بن الحاج النميرى الأندلسى فى عام ٧٤٥هـ / ١٣٤٤م "مجلة تاريخ وحضارة المغرب، الجزء التاسع، ١٩٧٠م، ص ٣١ - ٣٧، والمغرب والأندلس فى القرن ١٤، ملاحظات عن رحلة أندلسى للمغرب، فى ١٣٤٤ - ١٣٤٥م، ليون، ١٩٨١م.

١٤-هذا مسجل فى كتاب "خطرات الطيف فى رحلة الشتاء والصيف" من كتاب مشاهدات لسان الدين بن الخطيب فى بلاد المغرب والأندلس، تحقيق أحمد مختار العبادى، الإسكندرية، ١٩٥٨م، ص ٣٦، ٣٧.

١٥-حول هذا المصنف للأصفهانى (ت٥٨٧ / ١٢٠١م) : ن. إيليسيف، نور الدين أمير مسلم عظيم، دمشق، ١٩٦٧م، ج١، ص ٢٩، ٣٠.

١٦-نفح الطيب، طبعة القاهرة، ١٣٦٧هـ / ١٩٤٩م، ج٣، ص ٢٨٥، ٢٨٧.

١٧-أ. ميكل، المرجع نفسه، ص ٧٧٩. ونشرت رحلة ابن بطوطة وحققت وترجمت إلى الفرنسية على يد دفرمرى، وب.ر. سانجينيتى بعنوان "رحلات ابن بطوطة" باريس ١٨٥٣، ١٨٥٩، الطبعة الرابعة، باريس، ١٩٦٨ مع مقدمة وتعليقات لمونتيل ويستحسن الرجوع إلى الترجمة الإنجليزية مع تصحيحاتها اللازمة لجيب بعنوان رحلات ابن بطوطة، كامبردج، ١٩٥٨، ١٩٧١، وتوجد ترجمة بالإسبانية بعنوان ابن بطوطة عبر الإسلام لسيرافين فنخول، وفيدريكو أربوس، مدريد، ١٩٨١، الطبعة الثانية، ١٩٨٧.

١٨-وفقًا لترجمة ليفى بروفنسال، انظر "رحلة ابن بطوطة فى مملكة غرناطة سنة ١٣٥٠" وذلك فى كتاب "دراسات لتكريم وليم مارسيه، باريس"، ١٩٥٠، ص ٢١٣، ٢١٤.

١٩-المقدمة، ترجمة دلا سلان، ج١، ص ٣٧٠، ٣٧١، فقرة نقلها ليفى بروفنسال فى الهامش رقم ١٩، ص ٢١٤ من مقاله الأخير.

٢٠-ملاحظات حول رحلات ابن بطوطة فى آسيا الصغرى وروسيا، مقال نشر فى الدراسات المشرقية المخصصة فى ذكرى ليفى بروفنسال، باريس، ١٩٦٢م، ج١، ص ١٢٥-١٣٣.

تطبيق المترجمة :

تحدثت المؤرخة راشيل آريبه عن تميز العصر الوسيط بوجود تبادلات ثقافية بين مسلمى الأندلس ومعاصريهم من المشرق فى ظل الخلافة العباسية وأشارت إلى أن الدافع الدينى كان الدافع الرئيس وراء رحلة هؤلاء الأندلسيين إلى المشرق كما ألمحت إلى دافع آخر وهو شغف الأندلسيين بطلب العلم وأصول المعرفة على شيوخ المشرق المعروفين.

واهتمت الباحثة آريبه بالرحلة البحرية وأشارت فى عجالة إلى الطريق الذى اعتاد المسافرون الأندلسيون سلوكه بحرًا، كما أكدت على أثر كتابات هؤلاء البحريين فى تطور الأدب الجغرافى، ثم انتقلت مباشرة إلى الحديث عن أشهر الرحالة الأندلسيين.

ومن الملاحظ أن المقدمة التى مهدت بها المؤرخة آريبه لبحثها جاءت مختصرة للغاية ومبتسرة، فالرحلة كانت لها آثار أخرى أكثر عمقًا وفعالية فى الحضارة الإسلامية فقد كانت من أهم عوامل الربط والتواصل بين أنحاء العالم الإسلامى فى عصور القوة، فضلاً عن أنها كانت من أبرز خصائص المجتمع العربى الإسلامى فى عصور الازدهار الحضارى[1]، فازالت الحواجز والموانع بين أقطار العالم الإسلامى على الرغم من الخلافات السياسية أو المذهبية القائمة بينها فكان تجار الأندلس يرحلون إلى الهند والسند كما كان بعض التجار المشارقة يرحلون إلى الصين أو يقصدون المغرب والأندلس[2]. مما ساعد على

---

[1] السيد عبد العزيز سالم، التاريخ والمؤرخون العرب، الإسكندرية، ١٩٨٧م، ص ٢١١.

[2] ارجع إلى ما أشار إليه المقرى نقلاً عن ابن حيان من أن تجارًا من الشرق من عدن كانوا يفدون إلى قرطبة زمن المنصور بن أبى عامر (المقرى، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، القاهرة، ١٩٤٩م، ج١، ص ٣٨٨، كما تستدل من شواهد القبور التى كشف عنها البحث الأثرى فى المرية على أن تجارًا من مصر والشام وبغداد كانوا يشتغلون بالتجارة فى المرية (لمزيد من التفاصيل راجع عبد العزيز سالم، المرجع السابق، ص ٢١٢) كما اشتهرت أسرات عراقية كاملة عملت بالتجارة فى مصر (لمزيد من التفاصيل عن بنى-

انتشار الإسلام فى الشرق والغرب عن طريق الاحتكاك السلمى، فضلاً عن شيوع وحدة ثقافية وفكرية إسلامية سادت من مشرق العالم الإسلامى إلى مغربه مما زاد من توثق عرى الوحدة الإسلامية.

وقد تعددت دوافع الرحلة فقد رحل الناس للتجارة بين الأقطار الإسلامية المختلفة فى المشرق والمغرب أو للتجسس مثل الجغرافى والرحالة الشهير ابن حوقل، أو للقيام بمهمة أو للسفارة[1] أو للحج وطلب العلم مثلما أشارت الباحثة آربيه.

ولا يعتبر هذا الموضوع جديداً، فقد سبق آربيه عدد كبير من مؤرخينا قاموا بالتصدى لدراسته بمزيد من الاهتمام والتفصيل ولعل أهم هذه الكتابات العربية المصنف القيم الذى ألفه الدكتور حسين مؤنس بعنوان "تاريخ الجغرافية والجغرافيين فى الأندلس" الذى تناول فيه تطور علم الجغرافية فى الأندلس وأهم الجغرافيين والرحالة المغاربة والأندلسيين وكتبهم ورحلاتهم إلى المشرق الإسلامى ومن هؤلاء أبو حامد الغرناطى وابن جبير وابن سعيد والعبدرى وابن الخطيب، كما عالج تطور أدب الرحلة فى الأندلس، وقد فات المؤرخة آربيه أن ترجع إلى هذا المصنف الهام الذى يعد من أكثر ما كتب قيمة فى هذا المجال خاصة ورجعت فى هذا المقال إلى بعض المصادر والمراجع المكتوبة باللغة العربية، كما فاتها الرجوع إلى عدد من البحوث الهامة التى تناولت علم التاريخ ومنها على سبيل المثال الدراسة الجادة التى أصدرها الدكتور شاكر مصطفى عن علم التاريخ وكتاب "التاريخ والمؤرخون العرب" للدكتور السيد عبد العزيز سالم. وقد فرق الدكتور سالم فى كتابه هذا بين الرحالة والجغرافى فهو يرى أن الرحالة لا يتجاوز فى كتاباته وصف مشاهداته أثناء الرحلة أما الجغرافى فيعمل على تغطية الإقليم الذى يتناوله كله بالبحث فيسأل ويتقصى ويجمع المعلومات من

=الكويك التكريتيين راجع صحر سالم، العراقيون فى مصر فى القرن السابع الهجرى، الإسكندرية ١٩٩٠م، ص ٦٠ وما يليها.

[1] السيد عبد العزيز سالم، المرجع السابق، ص ٢١١.

الحجاج وطلبة العلم والمغامرين والتجار والملاحين وليس من الضرورى فى رأيه أن يكون الجغرافى رحالة[1].

وإذا كانت الدكتورة آرييه قد اعتبرت أبا حامد الغرناطى نموذجًا ممثلاً للرحالة المغاربة فإن الدكتور حسين مؤنس يرى أن كتاب "ترتيب الرحلة للترغيب فى الملة" الذى كتبه ابن العربى والذى يتضمن رحلته المشرقية وما درسه فيها وما أفاده من هذا الدرس ومن لقى من العلماء والأعيان، هو النموذج الأول للرحلة الأندلسية وأول وصف لرحلة يكتبها أندلسى كما أكد فى كتابه "تاريخ الجغرافية والجغرافيين" على أن أبا بكر بن العربى هو مبتكر هذا الفن فى الأندلس، ويرى أن أبا حامد الغرناطى كتب شيئًا قريبًا من 'ترتيب الرحلة' ولكنه لم يصف رحلته ولم يعين مراحلها أو "مراتبها" بحسب مصطلح ابن العربى فى كتابه، ويختتم الدكتور مؤنس رأيه فى رحلة ابن العربى بقوله «نعم إنه لم يصل فى ذلك إلى شأو ابن جبير ولكنه دون شك، السابقة التى سيحتذيها أمثال ابن رشيد والعبدرى»[2].

وفيما يتعلق بما أوردته المؤرخة آرييه عن أبى حامد الغرناطى يتضح أنها اعتمدت كثيرًا على ما أورده سيزار دوبلر فى مقدمة ما نشرمن "المغرب من عجائب المغرب" فهى لم تأت بكثير عند حديثها عنه فلم يتجاوز ما ذكرته عن سير رحلته الذى تناولته باختصار شديد سوى مقتطفات من آراء وأوصاف سيزار دوبلر لأبى حامد الغرناطى كما وردت فى مقدمة المغرب. وقد أخطأت آرييه عندما أوردت اسم أحد كتابى أبى حامد الغرناطى اللذين ألفهما فى الموصل وهو 'تحفة الألباب ونخبة الإعجاب' فقد أوردته على أنه 'تحفة الألباب أو (الأحباب) ونجعة الإعجاب" كما لم تشر إلى سبب عدم عودته من رحلته

---

[1] المرجع السابق، ص ٢١٤.

[2] حسين مؤنس، تاريخ الجغرافية والجغرافيين فى الأندلس، مدريد، ١٩٦٧م، ص ٤١١ - ٤١٢.

المشرقية إلى الأندلس مرة أخرى على الرغم من أن سيزار دوبلر قد علل ذلك بسقوط بلده أنليش فى أيدى النصارى[1]. كذلك لم تشر راشيل آرييه إلى زيارة أبى حامد الغرناطى للإسكندرية وزيارته لمنارها ودقة وصفه لها على الرغم من أهمية ذلك للمهتمين بدراسة هذا المنار للتعرف على التطورات التى تعرض لها كذلك لم تشر إلى وصف معبد السرابيوم بالإسكندرية.

وقد ألف أبو حامد الغرناطى كتابه الأول "المعرب فى بعض عجائب المغرب" فى بغداد سنة ٥٥٦هـ وذلك عندما زارها للمرة الثانية، تلبية لطلب صديقه الوزير عون الدين يحيى بن محمد بن هبيرة الذى استضافه وأحسن إليه. وقد أفرد الدكتور حسين مؤنس حيزًا كبيرًا من كتابه للحديث عن هذا المصدر الهام، أشار خلاله إلى أهم محتوياته وحللها تحليلاً عمليًا دقيقًا[2].

ويعتبر المعرب أول مؤلفات أبى حامد الغرناطى، أما تحفة الألباب فقد دونه أبو حامد فى الموصل استجابة لرجاء الشيخ معين الدين أبى حفص عمر بن محمد بن خضر الأردبيلى مؤلف كتاب "وسيلة المتعبدين"[3].

أما فيما يتعلق بابن جبير فلم توضح آرييه صراحة فى سياق حديثها عن رحلته أنه قام بثلاث رحلات إلى المشرق الإسلامى، فقد تحدثت عن انطباعاته ومشاهداته إجمالاً وذكرت ضمنًا ما يشير إلى رحلتيه البحريتين الأولى والثانية. والواقع أنه رحل إلى المشرق ثلاث مرات وأن كتابه "تذكرة الأخبار" تسجيل لرحلته الأولى التى بدأها فى شوال سنة ٥٧٨هـ وانتهى منها بعودته إلى الأندلس فى ٢٢ محرم سنة ٥٨١هـ. ويعتقد د/ عبد العزيز سالم أنه كتب أخبار هذه الرحلة فيما يقرب من عام ٥٨٣هـ عندما شاعت فى الآفاق أخبار انتصارات

---

(1) لمزيد من التفاصيل راجع حسين مؤنس، تاريخ الجغرافية والجغرافيين، ص ٣٠٦، حاشية رقم ١.

(2) المرجع نفسه، ص ٣٢٦ وما يليها.

(3) لمزيد من التفاصيل راجع حسين مؤنس، تاريخ الجغرافية والجغرافيين، ص ٣٢٣ وراجع السيد عبد العزيز سالم، التاريخ والمؤرخون العرب، ص ٢٣١.

صلاح الدين يوسف بن أيوب واسترداده لبيت المقدس ثم دفعه الحنين للمشرق إلى رحلته الثانية إلى هناك سنة ٥٨٥هـ عاد بعدها إلى غرناطة فى سنة ٥٨٧هـ ثم استقر فى سبتة وتزوج بها. وعندما توفيت زوجته عاتكة أم المجد بنت أبى جعفر الوتشى، رحل إلى المشرق الإسلامى للمرة الثالثة فى سنة ٦١٤هـ ونزل بالإسكندرية وظل مقيمًا بها حتى وافته المنية ودفن بها، ومن المرجح أنه دفن فى الموضع المعروف اليوم بسيدى جابر[1].

وقد اعتمدت آرييه فى وصفها لرحلة ابن جبير الثانية فى البحر على ما أورده هو نفسه من وصف الأخطار التى تعرض لها أثناء رحلته فنقلت نصوصًا على لسانه فى مقالها بعد أن ترجمتها إلى اللغة الأسبانية ووضعتها بين قوسين. وقد تصرفت راشيل آرييه فى النصوص باستبدالها التواريخ الهجرية الواردة فى النص الأصلى بالتواريخ الميلادية واختصارها لبعض الأحداث، وقد قمنا عند ترجمتنا لمقال آرييه إلى العربية بالرجوع إلى نص رحلة ابن جبير الأصلى، ونقلنا ما ورد فيه حرفيًا حرصًا على الأمانة والدقة العلمية طالما وضعته راشيل آرييه بين قوسين.

واعتقد أن ما أورده ابن جبير من صور حية عن التعايش السلمى بين الصليبيين والوطنيين فى مملكة بيت المقدس الصليبية على الرغم من الحروب التى كانت قائمة بينهما، شهادة حية على التسامح والاستنارة اللذين اتسم بهما الفكر الإسلامى.

وإذا كانت آرييه قد وصفت ابن جبير بالإحساس القوى والتدين الذى تمثلت مظاهره فى فقرات معينة من كتابه فقد وصفه الدكتور حسين مؤنس بأنه كان ذا إحساس عميق بوحدة الوطن الإسلامى فهو يقوم برحلته الثانية إلى المشرق احتفالاً باسترداد صلاح الدين لبيت المقدس وهو يوضح فى رأيى مدى

---

[1] السيد عبد العزيز سالم، التاريخ والمؤرخون العرب، ص ٢٢١. وارجع إلى ما ورد فى ابن الخطيب، الإحاطة فى أخبار غرناطة، القاهرة، ١٣١٩هـ، ج٢، ص ١٦٩.

عمق الروابط الفكرية والمعنوية ومدى توحد المشاعر الإسلامية بين أطراف العالم الإسلامي رغم المسافات الطويلة والخلافات السياسية والمذهبية، كذلك وصفه الدكتور مؤنس بأن كان رجلاً ذا قلب إنساني كبير فقد هاجر في أواخر أيامه إلى المشرق ليتعزى عن مصابه في زوجته عاتكة للتأسي والنسيان وزيارة البيت الحرام[1].

ولم تشر راشيل آرييه إلى قيمة ما أورده ابن جبير من إشارات هامة عن البحر والسفن وأحوال الملاحة في البحرين المتوسط والأحمر في القرن السادس الهجري ولا عن ملاحظاته الجغرافية التي كانت غاية في الدقة والصدق.

أما العبدري فقد ذكرت آرييه أنه رجع بالنسب إلى أصول عربية بعيدة وأنه كان ينتمي إلى قبيلة حاحة التي كانت تنزل (الصويرة حاليًا) بموجادور. وقد يبدو ما ذكرته راشيل آرييه متناقضًا في بداية الأمر إذ كيف يرجع العبدري إلى أصول عربية وينتمي إلى قبيلة حاحة البربرية في الوقت ذاته؟؟

وفي حقيقة الأمر فإن العبدري عربي الأصل، قرشي يرجع إلى بني عبد الدار بن قصي[2] وكان أصل بيته من يلنسية ثم هاجر به أهله وهو صغير إلى المغرب حيث استقروا في الإقليم الذي ينسب إلى قبيلة حاحة المصمودية التي كانت تضرب حول مدينة الصويرة الحالية[3] .

---

[1] حسين مؤنس، المرجع السابق، ص ٤٣٨.

[2] السيد عبد العزيز سالم، التاريخ والمؤرخين العرب، ص ٢٢٤.

[3] لم يكن اسم الصويرة واردًا في العصر الوسيط وإنما استعمل زمن السلطان محمد بن عبد الله الذي بادر ببنائها واتخاذها ميناء أول لمبادلات المغرب التجارية مع الخارج وذلك ابتداء من عام ١٧٧٣م، وفتحها للأجانب وخصها بامتيازات جمركية مما جعلها تتفوق على غيرها من الموانئ المغربية (محمد زينيبر، إطلالة على منطقة الصويرة في العصر الوسيط، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، أكادير، ١٩٩٠م، ص ٧٧) وقد اختلف المؤرخون في أصل الصويرة، ويجمع بعض المؤرخين على أن موقع الصويرة هو أمكدول مرسى حاحة وسوس (زينيبر، المرجع السابق، ص ٨٠) في حين يرى آخرون أن الصويرة الحالية بخلاف الصويرة القديمة وأن الصويرة الحالية هي مرسى أكوز أو كوز الذي ذكره=

وقد تحامل العبدرى على مصر والمصريين وسب أهلها، لاسيما عند وصفه لما لاقاه على أيدى متنفذى المكوس، فى حين نراه يمدح تونس وأهلها مدحًا شديدًا.

ولم يكن هذا هو شأن العبدرى وحده، فابن سعيد صور مدينة الفسطاط تصويرًا سيئًا وتهكم على أهلها[1] مما دفع بعض المؤرخين إلى اعتبار أن ذم أهل مصر أصبح موضوعًا تقليديًا لدى الرحالة المغاربة[2].

وأفضل ما فى بحث راشيل آريبه حديثها عن البلوى وابن بطوطة فقد تناولت رحلتيهما بشىء من النقد والتحليل بخلاف دراستها السابقة لأبى حامد الغرناطى وابن جبير والعبدرى وابن رشيد التى اقتصرت على مقدمة كتبهم المنشورة، وكنت أتمنى لو ختمت دراستها بالإشارة إلى رحلة أبى الحسن على بن محمد القلصادى القرشى البسطى المتوفى سنة ٨٩١هـ. وقد ولد القلصادى فى مدينة بسطة الواقعة شمال شرقى غرناطة والتابعة لكورة جيان، وبها نشأ وتلقى علومه الأولى على أيدى شيوخها أبى بكر البياز، وأبى عبد الله محمد بن محمد البياتى، وأبى أحمد جعفر بن أبى يحيى، وأبى الحسن على اللخمى القرياتى. وكان خلال إقامته ببسطة يتردد على غرناطة عاصمة المملكة، وقد بدأ القلصادى رحلته الحجازية سنة ٨٤٠هـ فزار تلمسان وتلقى العلم على أعلامها وقضى نحو ثمان سنوات أثناء ذهابه يضاف إليها ثمانية أشهر فى طريق عودته للأندلس. أما تونس فكانت المركز العلمى التالى الذى حل به وأقام بها مدة سنة

= البكرى (عبد القادر زمامة، الصويرة وإقليمها فى ذاكرة التاريخ، مجلة كلية الآداب، أكادير، ١٩٩٠م، ص ٩٥ وما يليها).

[1] ابن سعيد، المغرب فى حلى المغرب، تحقيق زكى محمد حسن، وشوقى ضيف، وسيدة كاشف، القاهرة، ١٩٥٣م، ج١، ص ٦٥٢.

[2] سعد زغلول عبد الحميد، ملاحظات عن مصر كما رآها ووصفها الجغرافيون والرحالة المغاربة فى القرنين السادس والسابع الهجريين، مجلة كلية الآداب، جامعة الإسكندرية، مجلد ٨، ١٩٥٤م، ص ١٠٨.

كاملة، وعمل أثناء إقامته بها بالتأليف فقد صنف آنذاك كتاب "كشف الجلباب عن علم الحساب" وكتابه "القانون فى الحساب" وكتابه "الكليات فى الفرائض" ثم مضى فى طريقه إلى القاهرة عبر جربة فطرابلس الغرب فالاسكندرية وكانت إقامته بالقاهرة قصيرة نسبيًا إذ لم تتجاوز ستة أشهر إلا بقليل، ثم رحل إلى الأراضى المقدسة، وهناك صنف كتابًا فى الفرائض وهو "شرح فرائض ابن الحاجب المراغى" الذى أجاز القلصادى فى أسانيده على كتب الأحداث. وقد شغلت هذه الرحلة خمس عشرة سنة رحل بعدها القلصادى إلى غرناطة حيث استقر، وتواصل عطاؤه العلمى، واشتغل بالتأليف والتدريس على الرغم من الاضطراب السياسى الذى كان يجتاح مملكة غرناطة فى هذه الفترة الحرجة. وعندما أحس القلصادى بالأخطار تحيط ببلاده، رحل إلى باجة أفريقية حيث واصل نشاطه العلمى، وكانت باجة من أكثر المراكز العلمية بتونس ازدهارًا وكانت بها جالية أندلسية ومغربية.